أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا
اسم المؤلف: طه بن بلقاسم
التدقيق اللغوي: منى حلمي
تصميم الغلاف: أحمد ربيع
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ١٥٩٨٢ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٣-٣٠-٨٩٩٩-٩٧٧-٩٧٨

مَسَار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا

طه بن بلقاسم

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

غزّة مرآة فشلنا، طِبتِ وطاب صبرك، هانت..

يُوزن المرء بِقَولِه، ويُقوّمُ بِفِعله

-إبن خلدون

مقدمة

لستُ واثقا أنني على قيد الحقيقة، فالحياة قاتمة ومعقدة أكثر مما كنت أتصور، لكنني على يقين أنني أفضل مما كنت عليه ما دام نفس القراءة طويل، إنني أحاول في كل مرة التشعب في اكثر عدد ممكن من الأفكار لعلّي أجتثّ فكرة جديدة تكون مختلفة عن سابقاتها، فالأنماط خاوية والافكار باقية.

هناك أشياء ثمينة تأتي بها الأقدار من رحم اليأس، ثم تزهر أكمامها فتينع، لا نستطيع وصفها لدقة تفاصيلها لكنها تكسر باب الجفاء فينا فتنفخ في صلبنا الإطمئنان و تشعل فتيل البصر في تلك العتمة الدامسة فما تلبث تلك الفوضى أن تخمد لنستطيع التجول بين أروقة العقل الواعي تلك الغرف الزهرية التي كانت منبع كل القرارات الإيجابية بحصافتها و قوة إدراكها، كانت سببا في إرتقاء ذواتنا من الفطنة إلى العذوبة وما الإرتقاء إلا إستقامة كانت سببا في تطوره وما إكتملت الفطنة إلا بالكتب التي سهرنا الليالي نقرأ أخبارها.. وما الإلهام الا أرواح مرت على خُليجات الأفكار فمتّعتها لتبدع ...

بقدر ما يحتاج الإنسان إلى أماكن جميلة وساحرة ليرتوي بهدوئها، تتسع دائرة رغباته إلى أماكن أفضل، بينما السكينة مستقرة بين صفاء القلب و راحة الضمير. فهي لا تستطيع بلوغ ذروتها في إكسير الحياة إلا باندماجها مع روح تحمل نفس صفاتها.

هجع الليلُ وعمّ السكون، هذا يبحثُ عن الحقيقة بِشغف طائر مُهاجر، وذاك يهرب منها كانطلاق السهم من القوص...

متلازمة الحلم

أمشي متثاقلا كأن قدماي تغوص في الرمال، أقتلعها بجهد، ثم أُواصل السير إلى الأمام، بِلا وجهة، الظلام يعم الساحة، أتقدم في حذر، عيني لا ترى شيئا لفرط العتمة، يدي تتحسس المكان، بينما تحاول أذني استراق سمع صوت ما، لكن بلا جدوى..

صفق طائر الخوف بجناحيه، أجدني تائه العقل، أعمى البصيرة، أسير في طريق طويلة، كالأعمى، لا أرى أمامي سوى بصيص نورٍ بعيد، لكأنه ذبالة مصباح توشك على الإنطفاء، شعرت بالإطمئنان، رغم الجزعِ الذي ينبعث من صُلبي، إني آنست فيه أمل مخرجٍ وفي نفس الوقت شعرت بوخزة في قلبي..

أتقدم في حذر وهدوء، بينما اتسعت هالة الضوء شيئا فشيئا، فأينع معها الأمل، حثثت الخطى، كلما اقتربت اتضحت لي الرؤية أكثر، لكن الطريق أصبحت وعرة، كلّما تقدمت أجدني أنجذب إلى الوراء لكأن ثقبا أسودا يبتلعني، إنني أسمع صوتا مختنقا على يساري كأنه فحيح ثعبان، ينفث في أذني نارًا لشدة حرارة أنفاسه...

يعقوب... هيا أسرع إن باب الخلود في انتظارك، لينفتح على مصراعيه، الكل ينتظر قدومك، لتُكمل مراسم التنصيب!

أيقظ فيا الصوت روح الشجاعة فتقدمت أكثر، فما لبثتُ أفعل حتى برز لي شهابٌ في السماء، وُلِد فجأة من رحم العتمة، إنه يتقدم نحوي، يقترب بسرعة قصوى، وضعت يدي على عيناي لشدّة الجزع، تكورت على نفسي خائفا..

هدأ كل شيء...

تسلّل ناظري من بين أصابعي فلم أرى شيئا! لقد أفَلَ الشهاب! و إختفى معه الصوت المرعب..

عقدتُ العزم على المضي إلى الأمام، كي أبلُغ ضالّتي أو أجد على ذلك النور الغريب هُدى..

شعرت بطيف يمرُّ بجانبي فلم أكترث، أسرعت أكثر

يعقوب..

يا إلاهي هذا صوتٌ آخر يوشوش في أُذني اليمنى!

سوف لن أُبالي... لكنه يبدو مختلفا عن الآخر!

يعقوب بُنَي تمهّل! لا تستعجل يا صغيري، تريث قليلا...

تحولت الوشوشة إلى همس خفيف لفرط رقتها، صوت عذب لكأنه نهر تدفق مائه من جبال جِنان عدن!

يعقوب إحذر يا ولدي، لا تقترب أكثر، إنك تسلك الطريق الخطأ! إن في نهايتها حتفك!

إنتظر قليلا، وتناول قسطا من الراحة، تمهّل ولا تتسرع، إن ذلك المكان مشؤوم! كل من دخله تملّكه شيطان على شكل غراب يلزمُ كتِفه الأيسر، ولا يفارقه حتى الموت...

لكن من أنت؟

أنا ملاك الرحمة يا صغيري، أنا نداء الضمير، بلسم الروح، لا تجهد نفسك، في المضي خلف ثعبان أعور!

ترددت قليلا، لكن سرعان ما إستيقظتِ الأنا من صُلْبي، لست طفلا لتنطلي علي هذه الهلوسة الفارغة، إنني أقترب من هالة الضوء تلك، أكاد أصل، لكأنها ترسم بابًا!!

إختفى الصوت فجأة كأنما انصهر في غياهب الظلام.

أجِدُني منتصب القامة رافِعا رأسي إلى البوابة الخشبية الشاهقة..

إن هذا الباب مألوف لدي! لقد زُرتُ هذا المكان سالِفا... أحاول النبش في تراب ذاكرتي، أشعر بصداع حاد، لكن بلا جدوى...

إنفتحت البوابة على مصراعيها، إنبعث منها نور من الداخل، كل شيء يضيء، بريقٌ في كل مكان، اغمضت عيني برهة ثم فركتهما وأعدت فتحهما من جديد...

رفوف خشبية عتيقة تكسي الحيطان، تحمل في تقاسيمها أواني ذهبية يُتعب بريقها العين لشدة لمعانها، تماثيل من مرمر وفضة، قلائدُ ذهبية معلّقة في كل مكان تتدلى منها أحجار كريمة مختلفة ألوانها، أواني فخارية كبيرة ممتلئة بعملات قديمة من ذهب وفضة، ذهب في كل مكان!

لقد عثرت على كنز!

بقايا طفولة

تسللت خيوط الشمس عبر النافذة، لاطفت محياي في خجل، استيقظت مذعورا، أبحث بناظري عن الساعة، ضيقت عيناي لأتحسس الوقت في ساعة الحائط، إنها الثامنة والنصف صباحا!

يا إلهي لقد تأخرت عن موعد الدراسة!

قفزت من الفراش كالجرادة لشدة الهلع، توقفت فجأة أحك رأسي في بلاهة، إنه اليوم الأول من العطلة، إرتخت اطرافي وتنفست الصعداء منتشيًا السعادة، الحمد لله فقد انقضت السنة الدراسية وانقضى معها تعب الإمتحانات، وشقاء المسافة الفاصلة بين بيتنا الصغير، المستقر على سفح جبل ساقية سيدي يوسف، والمدرسة التي في أسفل التلة. تفصلنا عنها عشرة كيلومترات كانت قد أنهكت جسدي الهزيل والضعيف، ندوب تنتشر على كل شبر من جسدي..

إننا نعاني الأمرّين.. الخصاصة في الغذاء والشح في الترفيه ... فما لبثت حتى انتبهت إلى صياح أطفال الجيران يلعبون، فانتفض قلبي فرحا لفرط اشتياقي إلى اللعب.

إنهم يمرحون، كيف لا وقد تحرروا كالعصافير من أقفاص ضغط الدراسة، سرعان ما انضممت إليهم، كي أشاركهم نشوة البراءة المتدفقة ذاك الصباح..

أنستني غفلة الطفولة نواميس أهلي الجافة، فما كدت أنغمس في اللهو، حتى شعرت بظل طويل حجب عني أشعة الشمس، لم أتجرأ على الإلتفات إلى الخلف فنظرات أصدقائي الحذرة لا تنذر بخير وكأن خطرًا داهمًا اقترب مني قاب قوسين

أو أدنى! قذفت دهشتهم الخوف في قلبي، تسمرت في مكاني ثابتا كالطود، حاولت اختلاس نظرة صغيرة إلى الخلف، لأتعرف على صاحب الظل الطويل، فما لبثت أفعل حتى اشتعل بريق قوي أمام عيني كالبرق، عمر! ..

ألم في الرأس، طنين فأزيز في الأذن، ثم انطفأ كل شيء، كأنما ابتلعتني غياهب ليلة ممطرة..

إنها يد غليظة هوت على عنقي كالمطرقة، صفعتني بلا رحمة، فسقطت أرضا مغشيا علي...! ثم ماذا؟

أصوات بعيدة، تقترب شيئا فشيئا، ضباب كثيف يحجب عني الرؤية، أشعر بالعطش، ألم شديد ينخر رأسي، هل هو كابوس مزعج؟ لا إنه ليس حلمًا فأنا أشعر بالألم، إذن إنه ملك الموت تمكن مني! كيف يزور الموت طفلا صغيرًا؟

إنقشعت الغيوم الملبدة، واقتربت الأصوات، إتضحت الرؤية، إنه وجه أبي محمر العينين منتفخ الأوداج، تصطك أسنانه من شدة الغضب!

أنت تكذب أيها المخادع هيا أنهض!!..

تراوغ كعادتك وتصطنع الحيل أيها المحتال، لتفلت من العقاب!

لطالما أفقدتني ضربات أبي العشوائية الوعي دون أن ينتبه لعلتي... لم يقدّر يوما صغرَ سني وضعف بنيتي التي لا تحتمل حتى ثقل محفظة الكتب...

أبي إنني..

أصمت! سوف لن تنجو بفعلتك هذه المرة!

لكم نبهتك أن تستقيم وتلتزم بواجباتك المنزلية؟

متى تنضج يا فتى، فتصبح رجلا كإخوتك الكبار وأعمامك؟

أبي أنا مري..

إخرس!!

أيها المدلل، إنني أنتظر العطلة بفارغ الصبر لكي تعينني على نشاطات المنزل فإذا بك ترتع كالبغل مع الأطفال الصغار!! ألا تستحي من نفسك؟!

ألا تستمع إلى ثغاء الغنم وخوار الأبقار يتضورون جوعا؟

من يهتم بها؟ أ نسيت نفسك؟

إنهالت عليا الشتائم كالسهام تنغرس في ذاتي، إنها تجلدني في أعماقي، ورأسي يتمايل من شدة الألم... تذكرت أن اللعب في قاموس أهلي محرم، وأن لا جهد يبذل إلا في مصلحة.

نهضت متثاقلا، فجذبني أبي من يدي فكاد يخلعها لشدة ضعفها، جرني كغصن زيتون، جثة هامدة فاقدة للحيلة لا تقوى على شيء.

وصل بي إلى البيت، وكزني، فطرحني أرضا، ثم مضى...

تكورت على نفسي أنتحب في صمت، وقلبي يتألم قهرا، وعقلي يتساءل أي ذنب اقترفت؟

هل اللعب في عقيدة الأهل محرم؟

ألهذه الدرجة أبدو رجلا يافعا على هيئة طفل؟

لقد تحطمت طفولتي في تلك الليلة، ولم أجد كلمات أعزي بها نفسي البائسة، فلم أدري كيف قضيت أيام عطلي بين أبٍ قاسي وأمٍ ضعيفة الحيلة مغلوبة على

أمرها، وأشغال شاقة لا تنتهي ولا تنقطع..

تتالت السنون وذبلت فيها براعم طفولتي في تراب الأبوة الجافة، فأمست شخصيتي متناقضة، غير متصالحة مع ذاتي..

ذكرى الميلاد

خريف ٢٠٢٢ تساقطت الأوراق الصفراء الذهبية على الساحات و الأرصفة، إنه الفصل المفضّل لدي، أحب الخريف، لأن نسائمه المعتدلة تسقي أرواحنا أملا وتروي قلوبنا حبا، كما تسلخ القحط من الأرض الجدباء، أحب الخريف لأنه فصله استقر ما بين البدايات والنهايات، ففي أرضه الخصبة تزرع بذور الشباب، كما تتساقط فيه أوراق الشيخوخة في طقس جنائزي مغيم، تدفن فيه آمال السطحيين في الحياة، بينما يزهر فيه شغف القراء، ويستيقظ فيه إلهام الشعراء، وتينع فيه أفكار الأدباء.. إن الخريف موسم الأمل لمن يسأل و مقبرة الحياة لمن يستسلم، ثم ماذا؟

ثم أينع الشتاء من صلبنا فاستقبلته الغيوم من حولنا تعلن التغيير..

إنتشر اللون الرمادي في سماء مدينة "برشلونا" إن هذه الغيوم الملبّدة لا تنذر إلا بشتاء شديد البرودة، هجعتِ السفن في حضن الميناء كالجراد المبثوث تتمايل مع تموجات مياه البحر، رسَمَتِ الشمس بِلونِها البرتقالي وخيوط أشعتها الصفراء، لوحة الغروب فكان فيها الشفق أجملَ من أي وقت مضى، أسراب من الطيور المهاجرة تغدو خِماصا، فأراضي الدفء تنتظر قدومها، فما لبثت أن غابت وانصهرت مع انسكاب الشفق في البحر..

ظلّ طائر العتمة يغطي بجناحيه كل شيء، ما عدا أضواء المدينة التي بدت ناعسة مع نزول الثلج، أين أنت يا عُمر لماذا تأخرت، يا ترى هل قبضوا عليه؟ لطالما نصحت هذا الشاب العربي البائس بأن لا يطيل التسكّع في المدينة، المسكين يعاني من أزمة نفسية مذ وطئت قدماه تراب أوروبا، فوجد نفسه مهاجرًا غير شرعي مجرّدٍ من الهوية، لا يملك أي وثيقة تثبت أنه بشر! تكورتُ على نفسي

على الأريكة أغازل أفكاري وسط العزلة، صوت وقع أقدام متثاقلة تقترب من الباب، إنقطع التيار الكهربائي فجأة فتسمّرتُ في مكاني متوجّسا، إنفتح الباب على مصراعيه، رجل ضخم فارع القامة ومحدودب الظهر يحمل في يده كعكة تتوسطها شمعة مضيئة، يتقدم نحوي ببطئ، سرعان ما عادت الدماء في جسمي إلى سالف نشاطها بعد تجمّدها، إنه جدّي إسحاق لطالما أفزعتني مقالبه الماكرة..

عيد ميلاد سعيد ... عيد ميلاد سعيد يا يعقوب ..

رجعت الكهرباء وتنفستُ الصعداء، اه جدّي لقد أفزعتني كدت أموت من الخوف. إحتضنته طويلا حتى اطمئن قلبي، هيا يا بُني فلنحتفل بذكرى ميلادك الثامنة عشر، لقد كبرت يا يعقوب وصرت رجلا، أما آن الأوان أن تتزوج؟ رماني بابتسامة ماكرة، حككت رأسي في خجل جدّي أخبرني ماذا في الصندوق؟ إنها هديتك يا بُني أتمنى أن تُعجبك، حسنا سوف أفتحها وأرى بنفسي إن كانت تروقني ... جدّي إنه كتاب! نعم يا بُني هو كذلك لكنه مختلف! أطلت النظر في الكتاب الغريب فعلا إنه مختلف!

غلاف جلد بنّي عتيق، متآكل من الجوانب يلتف حول رزمة من أوراق صفراء سميكة، أكل عليها الدهر وشرب، الحروف مُتموجة كأنما كُتبت باليد، تبدو مخطوطة قديمة وكأنها انتزعت من قبر فرعون!

إنها مجموعة من بروتوكولات سريّة، ونادرة "قال جدّي"

وعلى ماذا تحتوي؟ الكتاب الذي يستقر بين يديك يا بُني أغلى ما تم اكتشافه في العالم المظلم! لقد أنفقنا الغالي والنفيس في البحث عنه وتحمّلنا شقاء المتاعب التي اعترضتنا أثناء التنقيب، تحملنا الأذى والظلم، تعرضنا إلى الإضطهاد من طرف الأغلبية لأننا قلّة! الكتاب عبارة على نظام اجتماعي متماسك ومُنظم يخص

بني جنسنا، مجموعة من الغرف المظلمة تحمل أسرارا عظيمة قد حان الوقت لكي تكتشفها... أُحيطك علما يا بُني أن هذا الكتاب قد تعرّى من لحاف السر وأخرجناه إلى العالم، فتمت طباعته في عدة دور نشر فانتشر في المكتبات والأسواق كانتشار النار في الهشيم لكن في نسخة مزورة كنا قد طمسنا الحقائق المذهلة وتركنا ترهات لا تزيد عن التفاهة، لقد أرعبتني يا جدّي! وضّح لي أكثر، لا تخف يا يعقوب إن هذه المخطوطة تخص العائلة أباً عن جد، ويجب عليك أن تعرف أن كشف هذه الأسرار وتوثيقها كلّف بني جلدتنا خسائر بشرية من تعذيب وتهجير وهرسلة وتنكيل، إن تاريخنا يا بُني ملطّخ بدماء الظلم والمهانة، وها قد بلغت من الرّشد ما يجعلك جاهزا لكشف كل الحقائق... جدّي لقد زرعت في قلبي الفضول والخوف معا، إرتسمت ابتسامته الساخرة المعتادة على محياه، لا تحكم على شيء يا بُني قبل أن تقرأ الكتاب مرارا وتكرارا حتّى يشيب الغُراب... بالمناسبة أين صديقك العربي؟ لقد خرج منذ الصباح ولم يعد، إني أخشى عليه من القوات الأمنية التي تمشّط الشوارع كالجراد، وهل وجد عملا؟ لا يا جدي لم يوفق بعد، مسكين عمر لقد تجرع في حياته الأمرّين، لم يستطع التمتع بالعيش الكريم في وطنه، فطار به طائر الحلم إلى بلادنا فوجد نفسه سجينا وراء قضبان الغربة التي لا ترحم..

جدّي لماذا لا تتدبر أمره؟ فلديك من العلاقات والنفوذ ما يغير حياة عمر البائسة ويقلبها رأسا على عقب! إرتسمت على محياه ابتسامة ساخرة وضيق عيناه، وهل يهمك أمره إلى هذه الدرجة؟ نعم يا جدّي فلو سمعت قصته المؤلمة لأحزنك حاله، وفي الحقيقة لقد اطمئن له قلبي، ففي كلامه بلاغة لا توصف..

مم إذن لنرى ما في جعبتك، حدثني عنه

أرض الله واسعة

بقايا طِفل أينعت زهورها الذابلة في تراب الأبوة الجافة، أجدني أصارع الفقر في عائلة مُهمّشة لا عائل لها سوى راتب أبي البسيط، رغم الفقر والخصاصة إلا أن أسرتي أنفقت عليّ في الدراسة حتى تخرّجت من الجامعة، لم يؤثر فيّ الفقر في المعيشة بقدر ما أثّرت فيّ دوّامة الضياع التي أجدني غريقا في عتمتها، باتت أحلامي مثل السراب لا تستقر على هدف معين، كلما جاهدت نفسي في ترميم ذاتي أجدني محطما أكثر من أي وقت مضى، هناك شيء ما في داخلي مفقود، أحتاج إلى نبض، إلى روح نقية تطرد وحشة الإكتئاب التي تملّكتني، لطالما شعرت بعدة حلقات في ذاتي مفقودة، ربما الهوية التي وجدتها بناء قاعدي في تاريخ الشعوب، و لم أشعر بها يوما في بلدي. الضرائب أصبحت مجحفة، وطني لا شيء فيه جميل سوى الوطنية التي أتحسّسها عند سماع النشيد الوطني أو في الحماس الذي يغمرني عندما يلعب منتخبنا الوطني مباراة كرة قدم ضد فريق أجنبي، لا شيء آخر يُشعرني بالإنتماء إلى الوطن، ربما لأنني لم أغترب ربما... في غياهب هذه العتمة الغامضة التي هجعت على أرضنا وغطت كل شيء جميل، وأطفأت أنوار الأمل واجتثت إرادتنا من صلبنا، نسير نحن تائهين في مناكب وطننا وطائر اليأس يحلق فوقنا وينقُر على رؤوسنا التي تعاني فوضى الأفكار، إنها عتمة اليأس التي حطّمت كل شيء، آمالنا أحلامنا وشبابنا..

ها قد أُنْهكت أمتنا بالكامل، إغتُصبت هويتُنا وانكسرت إرادتُنا وضعف إيمانُنا الذي هو سر وحدتِنا وقوتِنا... لا ينفك الفرد منا ولسان حاله يقول: "لقد فات الأوان" "لا فائدة من المحاولة" "لقد خسرنا وكفى" "لقد ضاع كل شيء" ...

انتشرت هذه الموجات السلبية السامة بين شبابنا فأحبطت إرادتَهم وامتصت ثراء عزيمتِهم فأمست أرضًا جافة ينعق فيها الغراب..

حدث في وطني أن تطورت فطرة اليأس فأنتجت سمومًا جديدة أشد فتكا أولها آفة "التعميم" تعميم الفشل والتي انتشرت في مجتمعنا كالنار في الهشيم، تقصي كل شيء وتشيطن كل شيء فلا تلبث أن تستأصل كل فكرة أرادت الإصلاح وأن تسبح عكس تيار الفشل ..

وآفة "التقزيم" التي تنشر غبار التفاهة على كل شيء وتسخر من كل مشروع فكرة، حتى وإن نجحت شكلا، ومن كل اكتشاف جديد حتى وإن نجح! وتذكرنا بين الفينة والأخرى أننا قطيع لا نستطيع ... ليس من حقنا المحاولة وكأنه كُتب علينا الفشل والجمود.

وآفة التفاهة والهزل، إنتشرت بين مكونات المجتمع الذي بات منهكا تماما جراء الميوعة التي نخرت أوتاده، فأصبحت النكتة قبعة توضع فوق رؤوس البائسين ..

ولأن العالم المعاصر راجع حساباته في وسائل السيطرة، تطورت البندقية إلى وسائل تواصل اجتماعية سمعية وبصرية، شبكة منظمة اسمها الإعلام الوظيفي تمركزت كسلطة رابعة في الدول لتتحكم في الرأي العام بنشر البروباجاندا.

اتخذ الغرب سياسة ممنهجة لضرب التعليم وتجفيف منابع الدين وذلك بشن حملات صليبية معاصرة تنشط تحت غطاء التيارات الإلحادية، أحدثت فراغا كبيرا في عقول جيلٍ كاملٍ من الشباب العربي، فتصحر دينهم، باجتثات هويتهم ثم جاء دور الإعلام Les medias لتوجيه هذه العقول المرنة ضد الحقيقة والمبادئ، وجرها إلى الميوعة والإبتذال تحت سقف "التحرر" فأصبح الشاب منا يدور حول نفسه باحثا عن ذاته التي فقدها من حيث لا يشعر.

أصبحت التفرقة وقود الحروب التي انتزعتنا من حبل الله بعدما اعتصمنا به وصرنا حضارة وأمة، فأمسينا بعد انفراط عقدنا أمة خاوية لا تنتج ولا تقرأ ولا تحاول حتى ..

حدثت أمور كثيرة في الآونة الأخيرة في وطني "زادت الطين بلّة"، لطالما شغلتني الأوضاع السياسية، فأجدني أتابع الأحداث لحظة بلحظة، فتحولت مع الأيام إلى كتلة من الكآبة، فقدت الشغف في كل شيء، فلاحظ أصدقائي هذا التغيير في شخصيتي...

كثيرا ما تتردد على مسامعي في الآونة الأخيرة أسئلة من بعض أصدقائي ومعارفي

لماذا تبدو حزينا؟

لماذا تُكلّف نفسك عناء وطن لن تقيم له قائمة !

أ هكذا أبدو لكم؟ طيب سوف أعترف لكم، وأُفضفض عن نفسي قليلا، لعلي أزيح بعض التراكمات التي يبدو أنها صارت واضحة لكم أكثر مما كنت أتخيل..

أنا لست حزينا، لكن بداخلي وطنا محطّم، لقد تأذيت في وطني الذي بات مدينة أشباح معزولة، ترقص في أزقتها المظلمة ذئاب منفردة، كيف أبتسم بينما وطني يغرق بين رمال التطبيع المتحركة، إنني أقف متأسفا تحت ضباب "التفاهة" الذي خيم على شباب بلدي فغيب عقولهم عن الحقيقة و شحنها بؤسا و تظليلا، فأبعدهم عن عقيدتهم و عن هويتهم، لقد أصبحت الوطنية "مصطلحا" ساخرا، بينما الإيديولوجيا دينا يُعبد، أنا حزين لأن "الكراهية" في بلدي أصبحت "ثورية" بينما القانون يُفصّلُ حسب المقاس، و العدل حسب المصالح، و النواميس تُرسم

في الحين حسب المزاج ... فكلّما بدأتُ بترميم تلك المدينة الخاوية التي بداخلي إلا وانهارت أعمدتها على آمالي وأنهكتها! إن بداخلي طائرا ينزف، كلما حاول الطيران إلا وأسقطته سهام اليائسين من حولي فيتألم المسكين في صمت ويصمد ...أتألم كثيرا عندما أناقش أحدا فيضعني في مربع التصنيف، لأن المبادئ عنده مأجورة مهما حاولت إقناعه، فأصبحت أتكور في فراش وحدتي أخاطب ذاتي...

لقد سئمت العيش في هذا الوطن، كيف أبني مستقبلي على حطام! وكيف أواجه الحقيقة أمام أبنائي..

أتنفس الصعداء فأنفُخ زفيرا، أفرك شعري وأنظر إلى الفناء وأتساءل متى ينقضي شتاء بلدي ويزهر ربيعها من جديد؟

إني أشكو بثي وحزني إلى الله الذي لا يظلم عنده أحد. فهو خالق الطبيعة التي مذ نشأتها لم تستثني أحدا من النجاح..

تهدأ فوضى الأفكار فجأة لاشتعال بعض فوانيس الامل فتهجع صاغية..

أتنفس الصعداء وأفرك عيناي، فأعود إلى الواقع المُر من جديد فأحدث نفسي..

أما الآن فقد استُهدفت الهوية فاغتصبت الكرامة وتصحرت العقول فتجمدت لفرط فراغها، ثم ماذا؟ ثم تعفن المجتمع وخيم الجهل على مكوناته، فانتشر الرعاع والغوغائيين لتنقلب كل موازين المبادئ ... ثكلت الأمة نخبها وعقلائها، فأصبح الرويبضة يفتون في شؤون العامة في ظل تخمر الشعبويين في مستنقعاتهم، فهجع سواد الجهل متوعدا بسنين عجاف، ماذا أفعل؟ يجب عليّ النهوض والإبتعاد عن فوضى اليأس هذه، أرض الله واسعة لماذا لا أجرب الهجرة!.

حلم الهجرة

أسدل الليل وشاحه الأسود على المدينة لتكون العتمة سيدة كل شيء. كان الشتاء ينبس بنسماته الباردة، التي تعوي بصفيرها بين الأزقة الفارغة والشوارع الخاوية، تحت أضواء الطريق الحزينة، تفرق ما تبقى من الباعة المتجولين يجرون عرباتهم في تثاقل، بعدما إحدودبت ظهورهم.

تنفست الصعداء وارتشفت من قهوتي الدافئة، فاسترخت لعبقها أعصابي التي فقدتها مذ ساعات في نقاش حاد مع أخي وليد، بعدما تحولت وجهته إلى مشاحنة فمشادة كلامية كادت أن تعصف بأخوتنا لولا تدخل أختي الكبرى سميرة في الوقت المناسب.

كانت سنون الجامعة كفيلة بأن تشحن عقولنا، بصراع الأفكار التي دأب عليها طلبة العلم في الجامعات، كلٌّ حسب ميولاته الإيديولوجية. كان وليد قد تشبع بالأفكار الماركسية و جمال أخذته النزعة القومية فانبهر بزعمائها، بينما كنت أتعاطف مع التيارات المحافظة رغم تقصيري في ديني، كان الحوار بيننا في اختلافه يبدأ بالإنصات و التبرير و النبش عن الحجج و المصادر المقنعة، فسرعان ما تنقلب الآراء فيتطور إلى تجاذبات ومناكفات ليتشبث كل واحد منا برأيه بكل تعصب، فتتدخل أختي الكبرى سميرة لتفض النزاع مرارا و تكرارا إلى أن قررت فصل الموضوع بيننا بشكل نهائي، فقررت توفير أرضية ملائمة بيننا للحوار، فكانت تجربتها مع حصص التنمية البشرية التي تلقتها من الدورات التكوينية كفيلة لبناء شخصيتها المتوازنة لتكون الأخت الكبرى الحكيمة والمثالية، فقد استغلت فترتها الجامعية في مراجعة عدة كتب في علم الإجتماع (إختصاصها في الجامعة).

إرتشفت من قهوتي وأخذت أتصفح مواقع التواصل الإجتماعي، فتحت تطبيق الأنستاغرام، أجدني منصهرا مع قائمة مقاطع الفيديو أتصفحها في بلاهة دون هدف معين، لطالما شدّ انتباهي ثراء المشاهير والرفاهية التي ينعمون فيها، يلبسون أفخر الماركات العالمية، ويتطيبون من أرقى العطور، يخوت وسيارات فارهة، منازل فخمة تطل على البحر، أتسائل هل تخرج كل هؤلاء من الجامعة مثلي؟ لا أظن ذلك، فبلدانهم المتقدمة وفرت لهم العيش الكريم، بينما ورثنا نحن من أوطاننا الخصاصة والبؤس، كلما شاهدت نمط عيش هؤلاء، أجدني قاب قوسين أو أدني من قرار الهجرة..

رن الهاتف الذي استقر بين أناملي كأنه تذكرة سفر إلى الحلم، فتوقف سيل الأفكار الذي انسكب في قهوتي القابعة أمامي كحجر اعتراف، كانت سميرة على الخط تضايقني كعادتها بأسئلتها المتطفلة لكنها بدت أكثر جدية.

عمر أريدك حالا هل بإمكانك العودة الى البيت؟ أنا وإخوتك وليد وجمال في انتظارك".

دفعت الباب بهدوء بينما عقلي شارد بين غياهب الندم، لطالما حاولت أن لا أغضب أخي الأكبر، استقبلتني سميرة بابتسامتها العذبة واحتضنتني بقلبها الحنون، اجتثت كعادتها من صلبي ما تبقى من أوجاع، إنها ماكرة تدرك جيدا رقة قلبي رغم قساوة لساني العنيد. عمّ الصمت بين أربعتنا بينما أطالت سميرة ناظرها إلى صورة أبي المعلقة في الحائط بعيون ذابلة يملؤها الحزن والحنين، فما لبثت أن تنحنحت وأردفت قائلة: "إلى متى هذا التعنت في الرأي يا جمال؟ وأنت يا وليد هل أفادك التعصب في شيء؟ عمر لماذا لا تفتح باب الحوار مع إخوتك؟ هل أنتم واثقون من صحة أفكاركم؟ وهل هي قرآن يتلى؟

بربكم إسمعوني و أنصتوا إليّ جيدا فقد بلغت الأمور بينكم حدًّا لا يطاق وإني أشعر بشرخ كبير ينفتح في 'عائلتنا'

"بعيدا عن زوبعة "النرجسية" وعن جفاف "الكبرياء"، هروبا من تمرد "الأنا" وفوضى "الشعبوية" واجتثاثا لخطابات الكراهية التي جمدت عقولكم، لكم أحتاج إلى احتساء كأس "المعرفة" في حضرة حوار هادئ معكم ولو لمرة واحدة، تكون المناقشة في الأفكار وبكل عمق تنسجم آراؤنا برفق ولين، بحيث يستقر الإصغاء عند طرف، بينما يرسم الآخر خارطته في اتزان وهدوء ... عندها يستجمع كل واحد منا مصادره لتينع فلسفته بالحجج الكافية فيتطور الحوار من اختلاف إلى بناء أفكار جديدة تكون أكثر عمقا ونضجا ... فلا تعصب ولا مناكفة. قاطعها وليد قائلا:

"لقد فطرنا مختلفين في كل شيء فلا يعني ذلك أن نكون متخاصمين!"

فردت عليه باقتضاب: "ولكنك فعلت! أوَ نسيت إقصاءك لرأي أخيك في كل مرة ورفضك المتواصل لأفكاره دون التدقيق في تفاصيلها! عندها أفاق جمال من صمته وبكلمات متقطعة تكاد تهمس خجلا:

"أعترف أنني لست واثقا تماما أني على قيد الحقيقة 'فالإيديولوجيا وجدتها طريقا مختصرة إلى عبودية راقية' كانت قد أسرتني أعمى البصيرة في غياهب سجونها لأعوام، فهجرني أغلب أصدقائي. هنا ردت عليه سميرة بحنو:

"نعم أخي الحبيب هي كذلك فهي مجموعة أفكار تحاصرك من كل جانب إن استسلمت الى مسلماتها سوف تنحدر بمستواك إلى الأدنى... إخوتي الأعزاء إن لم تتداركوا أنفسكم وتجدوا حلول جذرية تصلح ما أفسده اختلافكم فسوف يعصف بأخوّتكم ثم يزرع بينكم الأحقاد والكراهية من حيث لا تشعرون... إن

سهام الكراهية إن انطلقت فهي تستقر على الجسد فتقتله بسموم أفكارها الصدئة. أنقذوا أنفسكم وأنيروا فوانيس العلم لتنقشع عنكم تلك العتمة الدامسة، فلا ضير أن تتبنى عقولكم أفكارا نبيلة لكن اتركوا العنان لملكتها لكي تبحث عن الحقيقة، في أكثر عدد ممكن من الكتب، فكلما سافرتم أكثر وأنتم تمتطون صهوة الكتاب سوف تجدون أنفسكم أقرب إلى الحقيقة.

فلنحاول.. فلنحاول مع بعض يا إخوتي لعلنا ندرك صواب الأمور وإياكم والتعصب فإن فيه من الحطب ما يشعل نار التطرف...

عم الصمت والعقول شاردة تطوف بين جدران الندم، بينما تصافحت قلوبنا وتعانقت..

تنفستُ الصعداء، شعرتُ بالإطمئنان، فقد كانت جلسة الإعتراف التي عقدتها أختي سميرة كافية لأن تُعيد مياه الأخوة بين العائلة، كل التجاذبات التي حصلت كانت بسبب غيوم الفقر والخصاصة التي خيمت على عائلتنا، أصبح حلم الهجرة يراود نفسي أكثر من أي وقت مضى.

أجدني أكثر الأوقات مختبئا وراء هاتفي أتصفّح مواقع الهجرة التي أصبح أغلبها يُتاجر بمِحن الشباب، كثُرَ المتحيليون والإنتهازيون من صائدي أحلام الشباب، فأصبحوا كالذئاب الشرسة التي تتربّص بالفرائس الضعيفة والمعطوبة..

أصاب الشباب النفور وفقدان الأمل من شبكات التسفير التي تبيع عقود الشغل الوهمية، فالتجئوا إلى شبكات أخرى سرية خارجة (الحرقة) هجرة غير شرعية لا تستعرف بقوانين السفر، يكفي أن تعثر على خيط يوصلك إلى (الحرّاق) منظّم الرحلة، فتقطع تذكرة عبور المتوسط نحو أوروبا، لكن الطريق محفوفة بالمخاطر من كل جهة، لذا سميت بتذكرة الموت!

إبتلع البحر الأبيض المتوسط آلاف الشباب غرقت معهم أحلامهم وأحزانهم وأمانيهم.. ثكلت الأمهات أبنائهم بدموع القهر، شباب في عمر الزهور ذهبوا ضحية أحلامهم.. يؤسفني حالهم وحالي، فقد عزمت مكرها على هذه المغامرة، أشعر بالخوف عندما أتخيل عتمة البحر في الليل، فينقبض صدري لِهول المشهد، لكن أمواج الفقر والخصاصة أشد قسوة..

"الحرقة" فايروس، متلازمة قهرية ما إن تملّكت أحدا إلا وقذفته في قوارب الموت يصارع ما تبقى من فتيل الحياة...

حاولت فتح أبواب الذاكرة لأتحسّس في غرفها اسم "الرّايس" الذي حدّثني عنه صديقي مهدي في إحدى المرّات، عندما كان يروي لي بطولاته في عالم البحار، وكيف كان يُناور قوّات خفر السواحل، ثم يفلت منهم بقاربه المملوء بعشرات الشباب في غياهب الليل، حتى يعبر بهم المتوسّط إلى الضفّة الأخرى.. كانت جزر إيطاليا (لامبادوزا وبانتيلاريا وسيسيليا) هي الهدف، يُفرغ قاربه على ضفافها ثم يعود مسرعا ليصطاد مجموعة أخرى لفظتها أمواج اليأس..

الصّقر! نعم لقد تذكّرت إسمه "أيمن الصّقر"، إشتغل لسنين بحارا يصطاد السمك، ثم اكتسب الخبرة في عالم البحار فأصبح يصطاد أحلام الشباب..

إتصلت بصديقي مهدي، لم يكلّفه عناء البحث عن رقم هاتف أيمن الصّقر سوى دقائق..

وصلتُ إلى ضالتي، هاهو الصقر على الخط، يُنظّم كلماته في حذر كما حدثوني عنه.. يمتاز بذكاء حاد بحيث لا يُعطي ثقته لغريب حتى يتحقق من أمره، خوفا من رجال المباحث الذين لا تغمض لهم عين ولا تُغلقُ لهم اذن...

حدّدت معه موعدا، لا أدري كيف تسارعت الأحداث بهذا الشكل! يحدث أن يركضُ الإنسان وراء الحلم حتى وإن استدرجه إلى الهلاك!

سارت الأمور كما خطّطت لها على أحسن ما ينبغي، إلتقيت بالصقر وحدّدتُ معه موعدا مع أول رحلة، دفعتُ له ألف دينار عربون، لأكمل له بقية المبلغ أربعة آلاف دينار عند الصعود إلى المركب..

(حلم الهجرة يتحقق)

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

[النور: ٤٠]

ستّةُ أشهُر مضت على قدومي إلى أوروبا، جبتُ فيها المدن والقرى باحثا عن عمل لكن دون جدوى... تذكرت ليلة الصفر التي ألقيتُ فيها بنفسي في قارب الموت، كما يلقي العاشِقُ الصّبُ نفسه في نيران العشق الملتهبة..

قطعة خشب بالية أسلمت مصيرها بين أمواج عاتية، كانت كفيلة بأن تقذف الرعب في قلبي، أجدني متكورا على نفسي بين عشرات الشباب المنكوبين، نترقّب بصمت صوت المحرّك، الذي تحول إلى صوت الحياة، فقد إستنفذنا كميات البنزين الإحتياطية، إزدادت سرعة الرياح، وهاج البحر أكثر، تعالت الأمواج كالجبال،اصيب القارب بالهلع مثلما فزِعت قلوبنا، إنه يقاوم بما تبقّى من بنزين لكن إلى متى؟ خيم شبح الموت فوق رؤوسنا كأنما ينتظر ساعة الأقدرا، اصيب كلّ من في المركب المتهالك بالخرس، عيون زائغة تبحث عن خيط الأمل، يحدث أن

يصاب الإنسان بالدّهشة في لحظات الجزع الأخيرة، فيُعلن الإستسلام فيُسلّم أمره لله بعدما كان يتناساه في أوقات الرخاء، فما إن تتغمّده الرحمة الإلهية بطوق النجاة، ينسى ويعود إلى سكْرته الدنيوية!نطقتُ الشهادة عشرات المرّات، تضرّعتُ إلى ربي من شدة الخوف الذي تملّكني، تذكرتُ دعاء سيدنا يونس عندما التقمه الحوت، ردّدتُ "لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنتُ مِن الظالمين" إلى أن جف حلقي، إنتحبتُ في صمت، ثم فاضت العبرات على وجهي. نظرتُ إلى السماء أستغيث، رفعتُ يدي، وعدتُ ربي بأن لن أعصيه فصاعِدا ما دُمْتُ حيّا..

تحققت دعواتي تحقق معها حلُم أوروبا الوردي، ها قد تخلصت من ذكرى طفولة بائسة دفنتها في تراب الأبوة القاسية، ومن الخصاصة التي تملّكتني في سنين البطالة القاسية..

إختنقت أنفاسي من دخان السجائر، هجرني النوم لشدة التفكير فأصابني الأرق، كلما حاولت إغلاق أبواب دهاليز الماضي لأنسى. إزداد شهيقها وهي تفور من الحزن، فندوب الذاكرة ظلّت تنزف، لم أستطع إخماد نار الفِراق، فقد ثكلتني أمي بدموع حسرة الوداع، ودّعتُ أهلي ووطني وامتطيتُ صهوة شهادتي العلمية، لعلّها تنصفني، ها أنا ذا أندب حظيَ، لا ملجأ يُؤويني سوى هذه الشقة المشؤومة التي أتقاسمها مع ٤ اشخاص غُرباء، كانوا ينامون النهار، ويستيقظون مساءً عندما تأتيهم سيارة سوداء ليستلموا منها بضاعتهم، ثم ينتشرون بين الأحياء يتسكعون مثل طيور الظلام..

كانت تجارة المخدرات كفيلة بأن يجدوا تحت جناحها رغد العيش، بينما كنت أجاهد نفسي، كلما تذكرت ذلك الوعد، الذي قطعته في غيابات البحر، بأن لا أعصي ربي، إزدادت عزيمتي قوة، وضبطتُ معها نفسي. كانوا للأمانة يحسنون

معاملتي، بيد أن طول نفس استقامتي غدا يُخنقهم، يتصنعون الودّ، لكن تفاصيل وجوههم تظهر غير ذلك، لطالما شعرت بثقل وجودي بينهم، لامتناعي المتكرر مشاركتهم نشاطهم السيء، وعندما فشِلوا في إقناعي والإيقاع بي في شِراكهم، أصبحوا لا يكترثون لوجودي..

إنّ إراقة ماء وجهي بالنسبة لي لأشد قسوة على كرامتي، من إراقة دمي، أُوصِدت الأبواب في وجهي، وأنا أبحث عن اللقمة الحلال، لا حبل أعتصم به سوى حبل الصبر، كانت الشقة تفترش قوارير الخمور وأعقاب سجائر الحشيش أكثر من السجادات، لطالما تمنيت إشعال واحدة منها فأمج منها نفسا عميقا، يُنسيني محنتي ويُخفِّفُ عني أثقال همومي، أنظُرُ بعينٍ زائغة إلى زُجاجة الويسكي البيضاء، فلا ضير في احتساء كأس منها أرتشف معه ترياقا يَشفي ندُوبي... يَشتعِلُ فتيل الضمير فجأة فأعدِلُ عن شهوتي... لا شيء أثقل وأشد على الشاب من الحفاظ على المبادئ وسط حضيرة من الدواب. كانت الصلاة هي الوسيلة الوحيدة التي توكز ضميري كلما اقتربت من معصية، فتكاسلت عن أدائها في أوقاتها إلى أن هجرتها، بسبب الخمول الذي انتابني في هذه الشقة المشؤومة. كتلة من السلبيات أجدني أتخبط فيها لكن لا خيار لدي لأن حظي مهما تعثر يظل أفضل حال من المهاجرين الغير شرعيين مثلي، الذين لا مأوى لهم سوى الشوارع والجسور ولا فِراش لهم سوى الكَراتين ولا أغطية لهم سوى قُبّة السماء..

الطقس هنا بارد، أكاد أتجمد، إنزلقتُ تحت لحافٍ مهترئ وأسناني تصطكّ، إرتفعت الحرارة، إنها الحمى وكيف السبيل في النجاة منها؟ ربما هي الفرصة لكي أشعر بنعمة الصحة.. إن المرض مهما أفتر عن أنيابه واشتدّت آلامه، يترك لنا أثناء رحيله راحة نفسية، نرتدي في خلوتها ثوب الفضيلة لنتحسس نبض الجمال في الأشياء، فنشعر بعذوبة السعادة في صلبنا، حينها نتصالح مع ذواتنا في لحظات

مسروقة من الزمن، حتى نتعافى تماما ثم ننسى كل شيء ونعود إلى حياة الفوضى والصخب من جديد... تذكّرت الآية الكريمة التي كان أبي يرددها عندما يُصيبه بلاء

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرا لكم »

عندما نتخذ طريق التأمل في هذه الآية الكريمة نجد في باطنها من الألم والخيبة و الإبتلاء أنواع ..

النفس البشرية ضعيفة، لا تُسلّط الضوء إلا على هذه المكاره، بينما تغضّ البصر عن جبرِ الخواطر وترميم جدران النفس الخاوية لتصبح أقوى وأشد..

"الألم" هو إدراك حسّي يجتثّ كل أنواع السعادة من البشر لفرط أوجاعه، فتضيق بنا الدنيا حتى الإنهيار... لكن ما تلبث أن تتفرق غيومه وتنقشع، حتى تعود صحة البشر إلى سالف نشاطها، لتعود إلى فطرتها الأولى، وكأن الجسم قد اغتسل من كل وجع وكمد.. متى مخضنا الحليب نتحصّل على زُبدة نقية وطازجة، ومتى عصرنا الفواكه حصلنا على شراب حُلو المذاق..

هكذا هي الحياة متى أعطتك شيئا إلا وأخذت منك مقابله ..

حتى تلك الترسبات السلبية المتراكمة بين ثنايا الروح تختفي بمغادرة الألم، وكأنه كنس كل شيء في طريقه ... عندها يدرك العقل قيمة الحياة بطعم "الألم" لأن "الإستقرار" يولّد التعود فيصبح كلّ شيء جامد، حينها نفقد الشغف والاجتهاد، فيمسي كل شيء روتيني الى حد الجمود القاتل ... فنصبح كتلة من اللاشيء خالية من كل إحساس ..

الألم والسعادة وجهان لحياة واحدة، كلاهما يُكمل الآخر.

عندما تغيب شمس الحياة وراء غيوم المرض الملبّدة ويضرب ليلُ الألم، يصاب العقل بالعجز في التفكير، عندها نفشل في إيجاد حلول نفسية حينية، نبحث عن باب للنجاة فلا خلاص لنا إلا في اللجوء إلى قوة خارقة لنتمسك بطرف خيطها، هنا يستيقظ الإيمان من صلبنا فيردد اللسان هذه الآية الكريمة "عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" فهي ترياق فيه مزيجٌ من الصبر والثبات ما يجتث كل ألم قد حجب..

كانت المكتبة العمومية ملجئي الوحيد الذي يؤنس وحشة وحدتي وينسيني غُربتي، المكان الوحيد الذي تستقبلني فيه أمينة المكتبة بابتسامة رقيقة، ولا تطلب مني جواز سفر أو بطاقة هوية، كنت أقضي طيلة اليوم أبحث في الكتب أتحسس بناظري عن العناوين الإنجليزية فقد كنت أتقن لسانها، فلم أغترف من سنين عمري إلا شهادتي الجامعية في اختصاص علم الإجتماع فقد أيقظت فيا شغف المطالعة فأحببت الكتب.

شدّت انتباهي جملة مكتوبة على الحائط المقابل "أعطني الحرية ولا تغريني برغيف خبز" نعم هذا الشعب يعرف جيدا قيمة الحرية، فقد دفع من أجلها الغالي والنفيس، ليس مثل حالنا..

أذكر جيدا وأنا أتصفح كتب التاريخ في مجال 'الديمقراطيات والحريات' أن هناك شعبا عاش لسنون طويلة في غياهب الجهل والضياع، فغرق في رمال الإنحلال الأخلاقي، أمسى يستعار من الاستحمام ويعشق التمرغ في الوحل، فانتشرت الأوبئة والفئران في كل بيت، في المدارس والمستشفيات.

خيمت عليهم غيوم الجهل الملبّدة، عمّ السخط، أقبلت عليهم سنين كالحة أشدّ قسوة، فسد فيها كل شيء..

إنتشرت الفوضى بين مكونات المجتمع، فأحدثت زوبعة عصفت بكل شيء، تحت حكم الإمبريالية الملكية "التفرد بالحكم" فانحدر المجتمع إلى الطبقية.

إنقسم المجتمع، جزء صغير منه التفّ حول السلطة المتمثلة في العائلة الحاكمة، إنتشروا في مختلف أذرع الدولة، ليكونوا طبقة بورجوازية تقتات من فتات الحاكم، فسمن الخنزير وطوّق نفسه بكلاب شرسة كان قد أحسن تدريبها بأن لا تنبح إلا على الشعب... بينما الجزء الآخر حُشر في زنازين "البروليتاريا" تبحث عن قوت العيش بشقّ الأنفس والضرائب تُمطَر عليهم، فتك بهم الفقر لشدة الخصاصة، فعانت الظلم و الإستبداد والمحسوبية، إجتثّ الحاكم من صلبهم الكرامة فأمسوا قطعان بشرية لا يرتقون حتى لدرجة العبيد!

ثم ماذا؟

ثم أينعت تحت سحب الديكتاتورية الملبدة، أكمام زهور كانت قد ارتشفت خلسة قطرات الندى بطعم الحرية.. فانبست لها شمس الكرامة من وراء الغيوم تتسلّل فأزهرت، وهبّت عليها نسائم الحرية، فانتشر رحيق الوعي خِلسة بين مكونات المجتمع فأيقظ الناس من سبات الجهل وغفوة العبودية، فما لبثت أن استجابت متلهّفة لفرط القهر الذي ضرب على آذانهم ...

إنتشر الوعي بين الناس فعادت إليهم الإرادة في ثوب الثورية، لكن غيوم الظلم انتبهت بعيونها التي لا تنام، زاد سوادها كثافة، أرعدت مزمجرة فأفسدت كل شيء..

تلاشت أنفاس الثورية مع دخان الديكتاتورية، أحرقت نارها كل شيء... فخرست الأفواه وامتلأت السجون ونُصبت المشانق وأوقدتِ المحارق وسفكت الدماء ظلما ...

الإرادة إيمان...

الإرادة سلاح لا تنفذ ذخيرته...

الإرادة لا يغور مائها...

الإرادة بركان لا يهدأ...

الإرادة دماء تنزف، لكنها لا تموت...

نعم التهمت نيران الديكتاتورية كل شيء فوق الأرض لكن خفيت عنها تلك البذور التي ترعرعت تحت التراب... غرف مظلمة رُصّفت فيها الكتب بعيدا عن عيون صيادي الحرية... فامتصّت من رماد القهر القوة والعزيمة وتجرعت من دماء الظلم فارتدت ثوب الثورية من جديد لتثأر لا للدماء بل للحرية ...

هناك إله قوي جبّار، يعلم، يسمع ويرى كل الذي يحدث من صرخات المظلومين وآلام المنكوبين ..

فجأة تفجّر الماء من بين تلك الغيوم، هطل المطر وتحول إلى سيول تجري في مناكب تلك الأرض الجرداء، فأينعت تلك البذور أكماما صلبة، ثم تفتّحت مع بعضها فازداد نموها لتنتشر في الأرض والرائحة الزكية تعم المكان ... فزال الشر بعد سنين من الصبر..

إنما الإرادة هي سر النجاح، فالإستمرارية عندما تثبت على مبادئها تصنع المعجزات... كل حكم زائل ولكل سلطان متجبر نهاية مخزية ولو طال حكمه بينما الكرامة لا عمر لها الا إذا أذن لها الله بالزوال..

الديمقراطية ليس لديها وزن فيزيولوجي بينما هي كيان لديه روح ويمتاز

بالأنفة ... لذا وجب علينا تسديد الثمن لبلوغ واحاتها..

إن الشعوب عند السلطان الجائر هي مجرد قطعان مجموعة أرقام، متى سألتِ الحرية قُطع عنها العلف فتخرس خوفا لفرط جهلها ..

هي تلك التعويذة السحرية التي طبختها الأنظمة الديكتاتورية لتكون وجبة دسمة للشعوب المستعبدة، الا وهي "إعطني رغيف خبز ولا حاجة لي بالحرية..

في صباح هادئ من صباحات المكتبة الجميلة كنت أختبئ في زاوية بعيدة عن الأنظار وراء كتاب "العرب لم يستعمروا إسبانيا" للكاتب الإسباني "إغناسيو أولاغوي" فانتبهت لنظرات الفضول لشاب أشقر، شعرت بالريبة في بادئ الأمر، فالهواجس التي بداخلي، إنتزعت من قلبي الإطمئنان. إبتسم لي وأشار بيده طالبا الإذن بأن يجلس بجانبي فاستجاب رأسي بالموافقة من دون أن أشعر، إحمرّ وجهه خجلا صباح الخير آسف على التطّفل لكن الفضول في كتشاف الكتاب غلبني، كما تعلم فالبيبلومانيون مثل حالي ينجذبون لعناوين الكتب دون إرادة منهم، طبعا طبعا لك ذلك تفضل بالجلوس، شكرا، هل أنت أجنبي؟ تلعثمت قليلا وفركت شعري، كيف عرفت؟ إرتفع حاجبه الأشقر لكنتك ظاهرة يا صديقي، عموما أنا اسمي يعقوب أقطن في الحي المجاور للمكتبة، تشرفت بك أخ يعقوب

أنا عمر من شمال إفريقيا تحديدا من تونس، أنت عربي إذن، هل تعلم لقد قدّرت ذلك فبشرتك المتوسطية وعنوان الكتاب يشيان بجنسيتك، جدّي دائما يقول لي إنك تتمتع بذكاء حاد وبقدر هائل من الفراسة، هنيئا لك بذلك يا يعقوب، منذ أيام أراك تجلس وحيدا هل تسكن لوحدك؟ شعرت بالإنقباض في صدري، وبالإحراج، في الحقيقة أنا أتقاسم السكن مع مجموعة من الشبان لكنني أفضل الوحدة، لأن توجّهاتنا وميولاتنا خطوط متوازية لا تلتقي في أغلب الأحيان..

إبتسم وكأنه تنبأ بذلك، إنه لأمر مؤسف، أنا أيضا لستُ بمنأى من الوحدة في هذه المدينة، أسرتي تستقر في مدينة مدريد، يزورني جدّي بانتظام لكنني أشعر بالوحدة، اه إعذرني يا صديقي على هذه الإطالة لقد ابتعدنا كثيرا عن الموضوع، لا عليك يا يعقوب، هاه هل تحدّثني عن فحوى الكتاب إن أمكن؟ أراك تشارف على نهايته، شعرت باطمئنان وفرح شديد، أول مرة منذ وطئت قدماي هذه البلاد أجد من يهتم إلى أمري ويسمعني ويصغي إلي..

هذا الكتاب ألّفه الكاتب الإسباني الشهير "إغناسيو أولاغوي" نفى فيه حدوث استعمار عربي لإسبانيا، حيث يعتبر أن نشأة الحضارة الإسلامية في الأندلس كانت نتيجة تقبل المسيحيين الإسبان لها، فقد كانت العقيدة التوحيدية التي ترفض الثالوث تشكل تقاربا كبيرا مع الإسلام، مما سهل نفوذه في وجدانهم الديني، جميل جدا هل تعلم يا عمر أن تلك الفترة تعتبر ضبابية لدي؟ فمصادر تاريخنا أغلبها متناقضة وغير منطقية بالنسبة لي، وعلى ماذا يحكي هذا الكتاب أيضا؟

إنه يسلط الضوء على معطيات تخص حقولا معرفية متباينة كالجغرافيا والهندسة المعمارية والأثنوجرافيا وعلم الحفريات وغيرها، مذهل! أحسنت الإختيار يا عمر أنت قارئ جيد، في الحقيقة تمثل الكتب بالنسبة لي شفاءً لوحدتي وبلسما لروحي، فعندما أغوص بين الصفحات أجدني منصهرا بين الحروف، أجوب البلدان وأخترق الأزمنة لأكتشف التاريخ.. عظيم! أنا مثلك تماما يا عمر إن الوقت الذي أقضيه معتكفا في المكتبة يعتبر ضرورة بالنسبة لي.. حسنا هل تقبل بأن أكون صديقا لك يا عمر؟ يكاد قلبي يقفز من مكانه لفرط الفرحة التي شعرت بها، كيف لي أن أجد صديقا يشاركني شغفي في هذا البلد الميت! صافحته بحرارة، طبعا يا يعقوب يكون لي عظيم الشرف، هيا حدثني عن نفسك أكثر، حكايتي يا صديقي أنني عبرتُ المتوسط باحثا عن حلم ضائع.. عشت في بلد كان كل شيء فيه جميلا ما

عدا العيش الكريم، ركبت قارب الموت فأجدني تائها في بلاد لا أعرف فيها سوى بضع شباب من تجار المخدرات أشاركهم السكن في شقة بائسة لم أشعر فيها يوما بالأمان..

تأثر صديقي يعقوب بقصتي وكادت عيناه تغرورق بالدموع، لا تحزن يا صديقي ولا تيأس فإن الخير لا ينقطع سيلانه في أرضنا القاحلة، إسمعني جيدا أنا أقطن لوحدي في شقة واسعة وفاخرة لكنها موحشة، لكم أتمنى أن تحل فيها ضيفا..

حمدت الله مرارا وتكرارا على هذا الفرج الذي فتح لي باب السكن من حيث لا أبحث ومن حيث لا أشعر.. أخيرا سوف أتخلص من المستنقع الذي كنت غارقا فيه، أحمدك ربي وأتوب إليك.

صفّق طائر الصمت بجناحيه، هذه حكاية عمر، تنهد جدّي وارتسمت على جبينه خطوط القلق، إذن صديقك هذا مسلم! نعم يا جدّي وهل هنالك مشكلة في ذلك؟ لا لا يا بُني فقط أردت معرفة ذلك...

السر

صوت يوشوش في أذني من جديد؟ اعرف هذه النبرة جيدا، إنه صوت جدّي! ماذا يفعل هنا؟

يعقوب.. يعقوب، هيا انهض يا بُني، إن جبينك يتصبب عرقا، هل أصابتك الحمى؟

إبتلعتني دوامة عميقة قاتمة وكأن بوابة الزمان انفتحت من تحتي، أشعر بالغرق، إنصهر الذهب مع العتمة، فانتشرت كل التفاصيل كالضباب، فتحتُ عيني أستطلع المكان..

جدّي! أين أنا؟

همم ذلك الحلم مجددا؟

تنهدت... نعم يا جدّي كل ليلة، مذ أهديتني ذلك الكتاب اللعين! رماني بنظرة حادّة يتطاير منها الغضب، لا تقل هكذا على الكتاب إنه مقدس! لكن يا جدّي كلما قرأتُ منه فصلا تملّكتني كوابيس مُزعجة، وكأن الفصول تعاويذ، لا أدري لماذا يأخذني هذا الحلم في كل مرة إلى بيتك القديم.. تنفس الصعداء واسترخت تقاسيم وجهه ورسمت تفاصيل الهدوء، إنه قدرك يا بُني..

نهض متثاقلا، نظر إلى اللوحة المعلّقة على الحائط، إنها صورة تذكارية للعائلة الموسّعة، ينبعث منها وقارٌ ملكي وكأنها كتيبة عسكر لفرط جمود وجوه أعمامي ورباطة جأشهم، يتوسّطهم جدّي ممشوق القامة بارز الصدر مرفوع الرأس، يرتدي معطفا أسودا طويلا وعلى رأسه قبعة حريرية سوداء يتصدّرُها شعار "درعٍ

أحمر" أو ما شابه ذلك، ربطة عُنقه القرمزية جعلته أصغر من أي وقت مضى! لا يليق بجدي إلا منصب القيادة، يمتاز بالحكمة، يطيل الصمت قبل أن يتكلّم وإن قال فعل وإن وعد صدق، لا يفعل شيئا إلا وحسب لعاقبته ألف حساب، أحيانا أشعر بأن جدي يتحكم في خيوط العالم، لفرط ثقته في نفسه، برج كبريائه عالي وصلد كالمنارة التي لا تنكسر أمام أمواج البحر العاتية.

أشعل سيجارته "السيجاريوس" الكوبية الفاخرة التي ترافق جلساته، فمجّ منها نفسا عميقا، نظر إلى خيط الدخان المنبعث منها، ودون أن يلتفت إليّ..

لقد كبُرت بما فيه الكفاية يا يعقوب لأطلعُك على السر الأعظم...

سر! أي سر؟ هيا أخبرني يا جدي أرجوك

إهدأ يا بُني، تريث ولا تستعجل الأمور، فالذي سوف تراه ينبغي لك أن تكون أكثر رصانة لاستيعابه!

أول خُطوة يجب عليك التحلي بالرّصانة وأن تستمع مني أكثر من أن تتكلم..

العقول المستهلكة التي اشتغل عليها الجهل لشدة سذاجتها وزادها الفراغ كسلا، لا تستطيع التفكير بعمق، ولا تجيد قراءة المشاهد إلا بطريقة واحدة سطحية، ولا تستطيع الخروج من دائرة "التصنيف" و توظيف الأشياء حسب رغباتها التي فُطرت عليها فإذا ما فشلت في الحوار تعصّبت فهاجمت بكل شراسة، فهي تعاني من تصحر لإفتقارها للمعلومات الكافية وفقدانها للمصادر ..

إن العقل البشري مجموعة فوانيس زيتية إذا أنت غذيتها أنارت لك تلك الغيمة الدامسة التي حجبت عنك الحقيقة. تلك الحقيقة هي غاية تستوجب قليلا من التضحية وكثيرا من الإجتهاد للغوص بين التفاصيل، والتدقيق فيها عبر أكثر

عدد ممكن من المصادر واحذر الإكتفاء ببعضها لانك حتما سوف تطوق نفسك بمجموعة أفكار سوف تؤدي بك في نهاية المطاف إلى التأدلج بأنماطها...

إبحث و اجتهد و لا تلتفت إلى الوراء فطريق الحقيقة طويل، ان مضيت فيها طالبا للعلم فستصبح مطلوبا مرغوبا..

نظر إلى الكتاب الذي استقر فوق طاولتي مبتسما، ثم تنفس الصُعداء، فما لبث إلا وتغيرت تعابير وجهه وتحولت تفاصيلها إلى الجديّة، لكأنما لفحته نسائم الماضي..

في الوقت الذي كان فيه نسق التطور البشري يزحف ببطئه المعتاد، تعلّقت هممنا ببناء شبكة مذهلة من التعاون الجماعي بين عائلتنا وبضع عائلات أخرى لا تعرفها، كما لم يحدث مع أي تنظيم على وجه الأرض... مهلا مهلا يا جدّي، إعذر ضعف حيلتي وناولني طرف الخيط من الأول كي أستوعب هذه الشُهب الكثيفة من الحقائق..

الليلة! وقف جدّي منتصبا كأنه يُعلن الحرب، إنه التاريخ الفاصل بين العالم الذي تعيش فيه، والعالم الذي سوف تكتشفه... القرن الواحد و العشرون يا بُني يمتاز بالسرعة في الأيام والأحداث، لذا

جهز نفسك يا يعقوب، واحزم أمتعتك، سوف نغادر عند العاشرة ليلا، يجب أن نصل إلى المدينة العتيقة عند منتصف الليل!

مرحى! لقد مضى وقت طويل لم تطأ فيه قدماي بيتك القديم يا جدّي، لطالما توسلتُ إليك في الذهاب إليه!

ها قد حان الوقت إذن لتقضّي فيه فترة عزلتك الجديدة أيها البطل فأنت مشروع

قائد. ولكن ماذا عن صديقي عمر؟ لا تكترث له يا بني سوف يتدبر حاله، جدّي لقد صرنا أصدقاء وحق عليا إكرامه، فإنه عابر سبيل ضعيف الحيلة! اه بُني يجب عليك أن تتخلّص من هذه العواطف التافهة، فإنها سوف تكون عائقا كبيرا بينك وبين النجاح! ومن قال لك أننا سوف نتخلّى عنه! إذن سوف تتدبر أمره يا جدّي الحنون؟ ضيق عينيه وابتسم لا تخف يا بُني سوف أهتم لأمره..

تنفست الصعداء لطمأنة جدي لي لكن قلبي لم يرتح بالقدر الكافي، استيقظ الفضول داخلي، ولماذا آخذ معي أشيائي؟ هل سأقيم هناك لمدة طويلة؟

فترة إقامتك يا إبني مرتبطة بما ستغترفه من عذوبة ذلك النهر..

نهر! أي نهر يا جدي؟ هل هنالك نهر في بيتك؟ إني لا أكاد أفقه شيئا مما تقول!

لا تستعجل يا بني، سوف تعرف كل شيء في أوانه... هناك سوف تكتشف أسرارا ستغير من نظرتك للعالم، فتعيد بناء أفكارك من جديد، لا ينبغي لك أن تطيل العزلة في هذا البيت البسيط، لكن يا جدّي أنت من أصرّ على مكوثي وحيدا في هذا البيت في الضاحية الشعبية، لكي أشعر بنعمة الثراء التي نحن فيها، كان يجب عليّ أن أكون قاب قوسين أو أدنى من الفقراء و المساكين... نعم و هو كذلك يا بُني لكن هذه المرحلة انطفأ فتيلها، لا تُلمني يا يعقوب على الخصاصة التي تركتك تتخبط فيها، فلوعة الفِراق لا زالت ندوبها تنزف دماء الإشتياق... إنها ذكرى مؤلمة ولم أستطع إجتثاثها من قلبي، لقد ثَكلتُ أباك بدموع القهر، مات صغيرا في مقتبل العمر، كنت أحبه حبًّا جمًّا، فاحتويته بعواطفي وتجاهلت حكمتي في تربيته، أغدقت عليه من المال ما جعله يتخبط في بحر الشهوات، لقد ظلمتُه من دون أن أحتسب أو أشعر، إتبع طريق المخدرات حتى اختنق بها بجرعة مُفرطة في عُمر الخامسة والعشرين، إنهار جدّي وذاب كبرياؤه مع سيل العبرات التي رسمت

خطّين (طريقين متوازيين على محياه رأيت فيهما أثر ندم الغفلة عن احتواء ابنه من جهة ولوعة الاشتياق على فراق وحيده من جهة أخرى)، إختنق صوته فأجهش بالبكاء، إحتضنتُه طويلا حتى استرخى كلّ شيء فيه فانصهر كالجليد تحت النار، أنا آسف يا بُني على إزعاجك بهذه الذكرى المؤلمة، لكن الهدف منها إخبارك بالعِبَر، أردتُ أن أصلح ما أفسدتُه في سلوك أبيك في تربيتك، فكنتَ للأمانة خير تلميذ، يجب عليك أن تشعُر بالمعاناة التي كلفتنا في بناء هذه الثروة، وأن تسلك طريق المهانة المدبب بالأشواك لتشعُر بعزنا و مجدنا..

الحلم يتحقق

الساعة منتصف الليل، وكأن قلبي توقف عندها لفرط لوعة الإنتظار.

وقفنا أمام باب بيت جدّي العتيق، أدخل مفتاحه الغليظ في الثقب الكبير، دوران القفل يصدر صوتا قويا..

تك تك ترك..

إنفتح الباب فأصدر صريرا قويا، لكأنما تحرر من قبضة زمن طويل، إلتحمت فيه مقابضه، إن هذه النقوش مألوفة لدي، أعرف هذا الباب جيدا، إنه هو! نفسه الذي ينفتح لي في كل حلم، وفي كل ليلة!

جدي إنه..

شش، أعلم كل شيء، هيا أدخل يا بُني ولا تندهش مما سوف تراه، هذه الزيارة سوف تغير مجرى حياتك، فقد انعقد اجتماع السادة، مذ أن سلّمتُك الكتاب لكي تنظمّ إلى نادينا، وتأخذ مكان والدك الراحل! لكن يجب عليك حفظ السر!

أخيرا يا جدي سوف أتمكن من دخول اجتماعاتكم المغلقة والسرية، هذا شرف لي..

لكن المكان مظلم!

إهدأ يا يعقوب، هيا أغمض عينيك، ولا تفتحهما إلا بعد أن أشعل لك الفوانيس والشموع...

إنني أشم رائحة ورق، راقتني وبشدة، لكأن الدهر أكل عليها وشرب! إنها

رائحتي المفضلة...

عمّ السكون فجأة وأشرق المكان.. الآن تستطيع فتح عينيك يا بُني..

كتب! كتب في كل مكان؟ لكن أين الذهب والفضة والياقوت والمرجان يا جدي؟ إنني أرى الواقع مثل الحلم، لكنهما اختلفا في المحتوى!

لحظة لحظة، تبدو هذه الكتب مختلفة عن غيرها، إنها مجلّدات ضخمة، تبدو قديمة جدا، هل هي مخطوطات قديمة يا جدي؟

جدي جدي! أين ذهبت؟

لقد تركني وحيدا!

حسنا سوف أتدبر أمري وحدي أنا لست طفلا صغير لأخاف..

أ يعقل أن يوجد هذا الكم الهائل من الكتب في هذا المكان؟ إنها مقبرة منسية، لا لا إنها أرواح حية تستقر على الرفوف في كبرياء، أنا سعيد جدا، كيف لا وقد دأبت على حب الكتب مذ نعومة أظافري، لقد ولدت في أحضان مكتبة، لكن هذه الكتب مختلفة عن غيرها... قضيت ليلتي الأولى بين رفوف المكتبة أجوبها وأتفحص العناوين وأتحسس الكتب الضخمة بين يدي، إلى أن هجع النعاس واستلقيت على الفراش فابتلعتني غياهب النوم..

(لا يمكن للماء أن يختلط بالزيت)

بعد رحلة طويلة مع الزمن بين مدن طليطلة وقرطبة وبلاط قصر الحمراء في غرناطة، إنتهت صفحات الكتاب، مضى اليوم ولم يأتي صديقي يعقوب، ترى ما خطبه؟ إنها الساعة الخامسة مساءً، تنحنحت أمينة المكتبة بعدما أكملت تنظيم

الكتب وإرجاع الكراسي إلى مكانها، فهمت بأن وقت الإغلاق قد حان، إبتسمت في وجهها ابتسامة امتنان ونهضت متثاقلا، لطالما أحسنت معاملتي هذه المرأة الرقيقة، كل من عاشر الكتب نال من عطرها..

أراك في الغد.. طال ناظري فغرق في زرقة عينيها، فانقطع الزمن من جديد، فما لبثت أن أيقظتني نحنحتها، أتمنى لك ليلة سعيدة واحمرّت وجنتاها خجلا..

أجدني أتمشى في الشارع بين الزحام، حششتُ الخطى لكي أصل إلى الميناء لأتمكن من رؤية الغروب، أحتاج إلى مشهد جميل ومكان هادئ لكي أفضفض بما في مكنوني..

كانت الشمس بلونها البرتقالي الناعس أجمل من أي وقت مضى.. هل يرى المرء الأشياء بقلبه؟ لم أشعر بالسعادة منذ وطئت قدماي هذا المكان، كيف لا وقد عثرت على صديق احتواني بقلبه وسكنه فاجتثني من مستنقع كدتُ أبلى فيه لولا رحمة ربي بي.. ثم وجدت نفسي أسير نظرات فتاة شقراء أظنها وضعت تاج الحب على قلبي المرهف..

غابت الشمس وغابت معها لحظات اللّذة التي أذابت جبل الجليد الذي جثم على نفسي، عدت مسرعا إلى شقة يعقوب وفي جعبتي كتب من الفضفضة، طرقت الباب فلم يستجب لي أحد، أعدت الطرق مرارا وتكرارا دون جدوى، شعرت بالقلق، أين ذهب يعقوب يا ترى، لربما أخره شيءٌ ما، سوف أنتظره في المقهى أسفل البناية، عدت أدراج السلم فاعترضني رجل ستيني ضخم يرتدي معطفا أسود طويل، أفزعتني تفاصيل وجهه الحادّة، حين مررت بقربه وقف ونظر إليّ بطرف عينه.. عُمر... إهتز قلبي من الهلع والقلق، هل تعرفني يا جدّي؟ أنا لست جدّك! إزدادت دقّات قلبي لنظراته الحازمة كأن الشرّ يتطاير منها، إستمع إليّ جيدا

أيها الشاب، إيّاك والعودة إلى هذا البيت مجددا هل سمعت؟ أنا.... إخرس! نحن لا نرحب بالمتسولين في بلادنا، عد إلى وطنك لا حاجة لنا بالعرب المسلمين فأينما حللتم حلّت معكم الفوضى والمشاكل.. تزاحمت كلماته تجاهي بمثابة طعنات متتالية، إخترقت كرامتي وكسرت كبريائي.. من هذا الرجل الغريب؟! لِمَ كل هذا الحقد والكراهية؟! أيها السيد أنا اقدّر كِبر سِنّك وإلا... لم أكمل الجملةَ حتّى انهال عليا بعكّازه الخشبي فشجّ به رأسي دون سابق إنذار، فاضت الدماء من رأسي وفاض صبري معها، لكنني تملّكتُ نفسي وتعوذت من الشيطان، فإنّ أي ردّة فعل أرتكبها كافية بأن تعيدني من حيث أتيت..

كيف أدافع عن نفسي وأنا الغريب الذي لن ينصفه قانون؟ إن هذا الرجل يعرف جيدا وضعية شاب مهاجر غير شرعي لا يملك اي وثيقة تثبت هويته، إستغل ضعف حيلتي لينفث في وجهي سمّ الكراهية التي في قلبه: هذا آخر إنذار لك، فإن رأيتك في هذا المكان ثانية سوف لن أرحمك! وإن سوّلت لك نفسك الدنيئة الإقتراب من حفيدي يعقوب ثانية، إعتبر نفسك في عداد الأموات... إقترب مني إلى أن لامس أنفه الطويل أنفي، فتح معطفه فبرز أطرف المسدس المختبئ تحت سرواله فتجمّدت في مكاني مشدوها، هل فهمت؟...

تصلّب كل شيء في داخلي ولم أنبس ببنت شفة، أطلت ناظري في عينيه فتحسّست تراكمات من الأحقاد والكراهية تشتعل داخلها، لم أفهم بالضبط سبب إقدام هذا الرجل على إهانتي وإذلالي، لكن المقصود واضح، ألا أقترب من حفيده يعقوب ثانية..

مسحت خيوط الدماء المتخثرة على وجهي وعدت أدراجي خائبا محطما أكثر من أي وقت مضى..

رحيق الفتنة

عدت إلى الشقة المشؤومة صاغرا منكسر الخاطر، إستقبلني سمير بابتسامته الساخرة، أين كنت يا عمر لقد طال غيابك هل وجدت شغل؟ أخرجت تنهيدة زفرت معها إعصارا من الحزن، هل أستطيع المكوث معكم بضع أيام يا سمير؟ لم أوفّق في إيجاد سكن ولا حتى عمل إلى حد الآن.. إرتسمت على وجهه ابتسامته الهادئة المعتادة، لك ذلك وآمل أن تكف عن نصائحك الفارغة، فيجب عليك أن تتأقلم مع واقعنا، فهنا كل شيء مختلف، قلبك ورقّة أحاسيسك يجب أن تتخلى عنهم، هنا لا ينشط من أعضائنا إلا العقل، إستعمله فقط لاستنباط طرق جديدة لجمع المال، لا فضيلة هنا سوى جيبك..

لطالما تفاديت النظر إلى الشرفة المُقابلة لغرفتي، كانت دائمة الأبتسام، كلما عجزت عن غض بصري إلتقت نظراتنا... أجدها تحدق إلي في بلاهة، تغمز بعينيها تارة وتتمايل بخاصرها تارة أخرى، كانت تتقن فن الإغواء بأنوثة ساحرة، قلّ ما تمتعت بها إمرأة في مثل عُمُرِها، إمرة أربعينية شقراء، متوسطة الطول مكتنزة الجسم عيناها لوزيتان قادرة بسحرها أن تأسر كل من يقع في شباكها..

أصبحت أندب حظي الذي قذف بي في دوامة الفتن هذه، لكنني لازلت أجاهد نفسي وأصارع شهواتي..

ذات ليلة خرج كل من في الشقة إلى سبيله، ما عدا سمير، ظل يقارع زجاجته في هدوء، هذا الشخص الهادئ لم يطمئن قلبي لغموضه أبدا، إستأذنت في الدخول فابتسم لي وأشار بيده الى الكرسي المقابل لطاولته، رماني بنظرة طويلة كان في عُمقها ملاك أبيض يستقر على كتِفيه غُرابان! ما هذا التناقض؟ سرعان ما تنحنح

ليقطع حبل الصمت

-تُعجبني شخصيتك يا عُمر، لك أن تفتخر بنفسك، إنك تقف بعزيمة صلبة على رمال الفِتن المتحركة، ولأن إرادتك قوية مثل الحديد فأنا فخور بك... لقد نلت من اسمك نصيبا كبيا من شدّة عُمر!

فركت شعري وطأطأت رأسي من شدة الخجل، لقد امتصّ شحنات الحذر بلِسانه المعسول! إن هذا الرجل لطيف عكس ما تخيلت!

شكرًا على الإطراء يا صديقي..

هل تؤمن بالصداقة يا عمر؟

طبعا فهي مهد الفضيلة..

جمعتنا الأقدار يا عمر لتشارك نخب همومنا وأحزاننا على هذه الطاولة..

إني أشعر بلوعة النيران التي تشتعل بداخلك، فأنا ظاهريا أبدو فتى طائشا متهورا، لكنني أملك قلب شاعر، أستطيع من خلاله قراءة لغة الأحزان فأحتويها! لا تظنّ بأنني لا أهتم لأمرك!

هل تريد إخمادها يا عمر لتهدأ أفكارك قليلا؟ ففي هدوئها يا صديقي تعيد تنظيمها بشكل تسلسلي بحيث، تجد مخرجا لمشاكلك!

تَنهدْتُ... لكم اتمنى ذلك يا سمير!

أُنظر إلى كأس الحياة هذه... متى احتسَيْتَها شعَرتَ بمرارة كالحنظل، لكن سرعان ما تتحول إلى حلاوة تجتث من فؤادك كل ألمٍ قد حجب!

إنقبض صدري، وتملكني الفزع، نظرت إليه مضطربا..

لكنها كأس خمر! وأنت تعلم أنني لا أشربها!

أعرف جيدا يا صديقي ولكم احترمتك على هذا المبدأ، لكنني لم اطلب منك الشرب حتى الثمول، فقط أردتك أن تزدرد كأس الروح هذه، كي تقتلع أوجاعك بجذورها! ليتسنى لنا الحوار بهدوء وعمق أكثر... إعتبرها دواء يا صديقي! لا تخف فهذه الكمية لن تغيب عنك الوعي قيد أنملة! إعتبرها مشروبا روحيا... هيا لاطف روحك يا صديقي وارحمها!

أنظُرُ إلى الكأس التي استقرت أمامي منتصبة كالأفعى الكبرى، لكن سرعان ما تحول طولها إلى راقصة بيضاء ترتدي لباسا أحمر قصير، ممشوقة القَوام تتمايل بأنوثتها أمامي، كأنني أتخيل سمير يدفعها من الخلف برِفق، وهي تقترب مني في تبختر، أجدُني أستسلم لسحر عِطرها الزكي، كان صوت سمير يهمس في أذني كفحيح ثعبان، لكن سرعان ما تحول إلى سيمفونية هادئة..

-هيا أطفئ ظمأك يا صديقي.. هي لك..

إلتفّت يدايَ حول خصرها، لاطَفَتْ يداها شَعري فتجمدت كل أطرافي لفرط سحر أنوثتها..

إنطفأ كل شيء فاختفت الراقصة، شعرت بمرارة كأنها لدغة أفعى سامة، نظرت إلى الكأس التي استقرت بين أناملي، من حيث لا أشعر، لكنها فارغة!

يا إلهي إنني ازدرت الكأس في مرة واحدة، لقد وقعتُ في فخ ذلك الخبيث سمير، إنه شيطان! لم أطمئِن إلى ابتسامته الخبيثة منذ البداية، لقد أوقعني بدهائه المعسول في شراكه!

هل يتمثل الشيطان في هيئة بشر؟!

أردتُ الوقوف لكن أطرافي رفضت النداء، إرتخت كانهيار جليد أذابته موجة حر صيفية مفاجئة، ذلك السم انتشر في دمائي، لقد تحطم شيء ما بداخلي، لكن صوت الهدم سرعان ما تحول إلى إيقاع ساحر! شعرت بالإسترخاء ثم سعادة مفاجئة، نظرت إلى سمير فوجدت وجهه يتحرك كقطعة معدنية ملقاة في قعر بئر عميق!

أردت الكلام فتلعثم لساني وثقلت معه نظراتي..

برزت أسنان سمير الصفراء من وراء ابتسامة ساخرة، فتحولت إلى ضحكة هيستيرية كأنما فاز بشيء ما..

لقد وقعت في الفخ يا عمر، سيسعد أصدقاؤنا بذلك كثيرا، إنه حدث كبير! هل ظننت نفسك قديسا؟

هيا يا صديقي شاركني نخب انتصاري، عمر يشرب الخمر، يا لهذه الصدفة! تحرر يا صديقي من زنزانة المبادئ التي حشرت نفسك فيها، رفه عن نفسك فإنها كلّت حماقاتك في تأديبها..

إستيقظ نداء الضمير من صلبي فشعرت بالندم لكن سرعان ما تشتت الصوت فابتلعه ثقب النسيان، شعرت بالغيظ لكن غيوم الغضب سرعان ما انقشعت..

الذنب ذنب واحد، وأنا وقعت في فخ المعصية، لكن لا بأس هي ليلة وستمر كسابقاتها، على الأقل لن أضر بهذا البلاء أحدا سوى نفسي، ثم سوف أتوب..

كأسا آخر فآخر، ثم آخر... فما عُدت أدرك عددهم..

طار سرب طيور الأحزان الذي في داخلي، وهجَرت معها طيور أخرى بيضاء، شعرت كأنها تنظر لي بأسى..

أشعر بالفرح، نشوة غريبة أيقظت شجاعتي..

تركت سمير يتخبط في سعادته، ويرتشف من نَخب نصره، ونهضت متثاقلا من الكرسي، أجر قدماي أبحث عن الطريق إلى المرحاض، مررت بالنافذة فاستوقفني طيف تلك المرأة، وكأنها تشير إلى شيء ما! إنها تشير إلي..

إنتابني فضول غريب لزيارة تلك المرأة، فحسمت أمري في الذهاب إليها..

طرقت الباب، إنتظرت لحظات او هي دقائق حتى فتحت لي..

من أنت؟

أجدني واقفا أمامها ولكنها تنظر إلى شيء ما خلفي! رباه إن هذه المرأة ضريرة!

هل يوجد أحد هنا؟

أنا جارك في العمارة المقابلة

وماذا تريد مني في هذا الوقت المتأخر؟

تلعثمتُ قليلا، فأصيب لساني بالخرس، إن هذه المرأة تبدو أجمل من أي وقت مضى، إنها فاتنة... إقتربت منها قليلا فدفعتني وهربت تجاه الهاتف..

ألو شرطة! لقد إقتحم شاب ثمل شقتي، رقم ٥ في العمارة عدد ٣ شارع.. أريد المساعدة في أسرع وقت أرجوكم أنني وحيدة...

لم أكترث لما حصل، فقد أُصيبت بصيرتي بالعمى، بينما استيقظت غرائزي فجأة كالبركان الهائج، تقدمت منها أكثر، حاولت المرأة المقاومة لكن بلا جدوى..

تحولتُ إلى وحش كاسر، فعلتُ بها ما فعلت، تكورت على نفسها تنتحب وترتعش... تركتها بعدما هدأ بركاني قليلا، إبتعدت عنها قليلا لأبحث عن

الحمام..

وابل من الشتائم يدخل أُذني فتصرفه الأخرى دون اكتراث، لكن كلمة قاتلة، ظلت عالقة في ذهني!

إنها تشتم أمي بكلمات نابية!

يا لجرأة هذه المرأة الوقحة، إنها لا تدرك قيمة أمي عندي، سوف أؤدبها، لكي تخرس، رميتها بأقرب شيء كان بجانبي، تحفة خزفية كبيرة فجت رأسها فسقطت جثة مسجات، إرتعشت يداها قليلا ثم جمد فيها كل شيء ما عدا نهرا من الدماء ظل يتدفق من رأسها..

لم أستوعب شيئا، تجمدت في مكاني، من هول الصدمة، لقد عاد إلي شاهِدُ عقلي، لكن إحساسي أصيب بالخرس! سمعت خطى أقدام تُهرول في السلّم، إنها تقترب من الشقة..

ضربة قوية كانت كافلة بأن تهشّم الباب..

شرطة... إثبت مكانك ولا تتحرك!

شرد ذهني لهول الصدمة، فأيقظتني صفعة على وجهي ثم ضربة قوية على رأسي طرحتني أرضا فأغمي علي..

سحابة كثيفة ابتلعتني، أصوات ضحك في كل مكان، ثم صرخات، ظهر لي شبح سمير على هيئة شيطان يضحك ساخرا والغربان على كتفه تنعق وكأنها تضحك هي الأخرى! حاولت الهرب فاستوقفني صوت نحيب، إنها أمي تذرف دموع الحزن في أسى..

أشعر بالبرد ينخر عظامي، إستيقظت من نوم عميق، صداع كبير ينخر رأسي، فتحت عيني، فرأيت رجُلا فارع الطول ببدلة عسكرية، واقفا أمامي منتصبا كملك الموت، نظر إلي في احتقار..

سوف تنال أشدّ العقاب أيها المجرم، ألا تستحي من نفسك، تسكر إلى حد الثمالة فتعتدي على شرف إمرأة عمياء، ثم تقتُلها يا عديم الشرف! إن أنقذتك الأقدار من حبل المشنقة فسوف لن تنقذك من عذابي وبطشي أيها المُتوحش...

تجمّد كياني لهول ما سمعت، إختنقت أنفاسي، شعرت بأن الشيب اشتعل في رأسي..

أنا فعلت كل هذا؟

أشعلت فوانيس دهاليز الذاكرة لأتذكر ما قد حصل، قرَصْتُ يدي لعل كابوسا مزعجا ابتلعني!

إنها الحقيقة بكل ما تحمله الجريمة من بشاعة!

لقد راودتني "الخمر" عن نفسي... فزَنيتُ بكل ما أُوتى الزنا من قذارة... ثم قَتَلْتُ نفسا بغير نفسٍ، فقتلتُ معها إيماني ومستقبلي!

إنطفأ فتيل الحياة أمامي، وانطفأت معه عزيمتي في طرق أبواب الأمل.. صفّق طائر اليأس في الزنزانة بجناحيه ساخرا، فشعرت بتحطم كل شيء داخلي..

صدَق من وصفها ب 'أُمِّ الخبائث'... لقد ابتلعتني أمواج الخمر إلى أعماقها فسلبتني فضائلي، ثم قذفني مدُّها على شاطئ الرذائل مُنكسِر الذات، مُحطم الفؤاد..

تجرعت من كأس خُبثها فغدت مرارتها سُمًّا أهلكني...

ذبلت أحلامي بين غياهب الزنزانة الملبدة، فانتكست أزهار طموحي في وقار جنائزي أسود، انطفئت نيران شغفي الملتهبة فأمست رمادا كهدوء كبرياء محطم، إشتد نعيق الغربان في عالمي فتوقف نبض شعوري، تحولت إلى كتلة من جماد مقفر.

أمسيت بقايا أملٍ يتجرع خيبات آلامه وراء ستار العزلة.

أصبحت العتمة سيدة كل شيء، تعزف سيمفونية حزينة هادئة، فغرقت أحلامي في هدوء ساخر، بين غياهب العدم ..

كلما حاولت إشعال فوانيس الأمل إلا وانطفأت لشدة العتمة ..

أجدني ضائعا في متاهة، كأنها جدران ذاكرة أديب تائه، مقبرة نائية لا يتكلم فيها إلا وقار بياض قبورها، لا شيء ينبض في داخلي سوى تلك الندوب التي جعلتني أنتحب في صمت، إنتهى سيل الأفكار فجأة أمام شبح حبل مشنقة يتراقص بين عيناي يعلن نهاية الحلم..

إمتداد الهوية العربية

إنتابني الفضول في فتح ذلك الكتاب العملاق الذي استقرّ عليه ناظري لضخامة حجمه وفخامة جلده، أخذته بين يدي، وكأنني أحمل قطعة من التاريخ! فتحتُه لأستطلع أول صفحة، ما هذه اللغة؟ لم أفهم من كلماتها شيئا، تبدو غريبة! ما هذه النقاط التي تتراقص فوق حروفها، إنها جميلة... السطور تبدأ من اليمين إلى اليسار على عكس لغتنا اللاتينية!

إنها اللغة العربية

هاه جدي إذن أنت هنا! أين كنت؟

يمكنك القول بأن هذه الكتب النفيسة، هي أغلى تاريخ نمتلكه يا يعقوب، إنها سرّ تقدمنا وتفوقنا على بقية الأمم..

لكن ما دخل العربية في تاريخنا يا جدي؟

الأندلس.. تركوا ثروة، تركوا كنزا عظيما وموروثا كبيرا، بنينا على قواعده مجدنا وحضارتنا. يا بُني، إن هذه الكتب التي تراها غدَتْ جذور كل العلوم التي بنيناها في مختلف المجالات من طب وهندسة وكيمياء ورياضيات وعلم الفلك...

تذكرت كتاب عمر حول الأندلس، شرد ذهني قليلا، نعم الحضارة التي يهتم لها صديقك عمر..

إنها نخبة تنويرية تمتدّ جذورها إلى قبائل عربية من البادية، ولدت من رحم الصحراء، وحدهم رجل اسمه "أحمد" أسس بهم "حضارة" انتشر شعاعها في

الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، فإسبانيا (الأندلس)! في فترة وجيزة لا تزيد عن الثلاث عقود..

يبدو لك الأمر معجزة أليس كذلك؟

نعم إنه لشيء عجب!

لكن كيف استطاعوا التوسع بهذه السرعة واحتلال بلادنا بهذه السهولة؟

أمّا بالنسبة للتوسع فإن دينهم الإسلامي انتشر في أصقاع الأرض كالنار في الهشيم، في أغلب الأحيان يتمكنون من امتلاك قلوب أعدائهم قبل الغزو أو ما يسمونه "الفتح"، دينهم أشبه بمعجزة، متى حاربته توسع، وحتى إذا تركته انتشر!

أمّا بالنسبة لخضوعنا لهم فتلك قصة أخرى..

في ذلك العهد يا بُني، كانت العقيدة المسيحية التوحيدية "الأريوسية" هي السائدة في بلادنا، ونظرا لرفضها عقيدة "الثالوث" وَجَدَتْ تقارُبا كبيرا مع "المسلمين" فقد حدث انسجام مع تصورهم العقائدي (التوحيد)، ورحبُوا بالمسلمين في بلادنا، فهم لم يأتوا إلينا إلا غُزاة تحت راية نشر دين التوحيد ألا وهو "الإسلام"! وكيف تجرؤوا على غزونا ونحن أمّة وهم أقلية يا جدّي؟

صحيح لم يكن عددهم كافيا لتنظيم جيشٍ قوي، لكن تلك الأقلية كانت تحارب تحت راية الخلافة الأموية أو دولة بَنِي أُمَيَّة (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦٢ - ٧٥٠ م) و هي أكبر دولة وثاني خلافة في تاريخ الإسلام، وواحدةٌ من أكبر الدُولِ الحاكِمة في التَّاريخ، سبق و حدّثتك على توسعهم، كان بنو أُمَيَّة أُولى الأُسر المُسلمة الحاكِمة إذ حكموا من سنة ٤١ هجري الموافق ل ٦٦٢م إلى ١٣٢ هجري ٧٥٠م، وكانت عاصمتهم "دمشق" التي تقع في سوريا الآن. بلغت الدَّولة الأُمويَّة ذروة

اتساعها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك، فامتدّت حُدودها من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً، وتمكنت من فتح إفريقية "الأمازيغ" والمغرب وجنوب الغال والسند وما وراء النهر والأندلس، بيتُ قصيدنا... نعم لقد حدّثتني عنهم سالفا.. في الإعادة إفادة يا بُني، فإن أردت هزيمة عدوّك يجب عليك أن تقرأ عن تاريخه جيدا، تتقن لغته وتبحث في عاداته وتقاليده لكي يسهل لك اختراقه من الداخل... عموما هذا ليس موضوعنا الآن فأنت لازلت في أول الطريق، نعود إلى موضوع الأندلس، الذين أنصفتهم المعجزات مذ وطأت أقدامهم بلادنا، لك أن تتخيل يا بُني أن جيشا صغيرا هزم شبه الجزيرة الآيبيرية وكسر شوكة مملكة القوط أنذاك! كيف حصل ذلك يا جدّي؟ الإرادة يا بني يلين لها الحديد، والعزيمة تكسر كبرياء الجبابرة. كان من أبرز قيادي جيش المسلمين في ذلك الوقت فارسان قويّان اسمهما طارق بن زياد وموسى ابن نصير، قاموا بتنظيم جيش صغير منظم و مهيكل لا حسب لهم إلا الله تجمعهم عقيدة واحدة ويحاربون تحت راية واحدة وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، كانوا يحبون الموت كما نحب نحن الحياة، عندما عبروا بسفُنهم المتوسط عبر المضيق الذي يفصلنا بإفريقيا، قام قائدهم طارق بن زياد بحرق السفن لكي لا يفكر أحد من الجنود في العودة إلى الوراء، ووضعهم أمام الأمر الواقع، إما الحرب أو الموت... فاشتعلت أول معركة بينهم و بين جيش "القوط رودريك" معركة وادي لكّة فانهزم فيها الجيش الصليبي و استسلم صاغرا... فمنذ ذلك الحين تحولت هيسبانيا إلى مستعمرة، لكن الإستعمار كان مختلفا... كيف ذلك؟ فلم أسمع في حياتي باستعمار لم يقتّل ويهجّر ويعذّب ويستغل الثروات؟ الأندلسيون مختلفون يا بُني فإن كانوا غزاة إلا أن جيشهم كان يتمتع بقدر عالي من الأخلاق والنبل، فلم يقتلوا إمرأة أو رضيعا أو شيخا ولم يقطعوا حتى شجرة واحدة... همهم الوحيد كان نشر الإسلام، يتصرفون كأنهم

جنود الله في الأرض، والحق يقال يا يعقوب! فإنّ الإزدهار المعماري، والثقافي الذي شهدته بلادنا في تلك الفترة، حقق لنا نهضة كبيرة على جميع المستويات، وفي الوقت ذاته، أُعيد اكتشاف الثقافة الإغريقية والبيزنطية، بفضل الإحتكاك بالمسلمين العرب، كان لدى علمائهم تعطّش كبير للعلم، ولديهم قدرة كبيرة على الصبر، والتحكم في الشهوات والغرائز، كان وقتهم ثمينا جدا، فقد بنوا جسر الإستقامة على خمسة صلوات يوميا، كانوا يتقربون بها إلى الله، فاكتسبوا من هذه العبادة النشاط والنظافة.

لك أن تتصور أن علمائهم لفرط فراستهم احتفظوا بمخطوطات قديمة لفلاسفة الإغريق! سوف تجدها في هذه المكتبة..

لكن أ ليس من الغريب أن يحتفظ العرب بموروثنا الإغريقي؟ ألسنا نحن أولى بالإحتفاظ به؟

في عصر الظلمات، بينما خيم الجهل على أرجاء أوروبا، إزدهر العلم في بلاد العرب، فقد تم اكتشاف قوانين الحركة قبل نيوتن بخمسة قرون، من قبل العالم "أبو البركات ابن مالك البغدادي" كتبه موجودة في مكتبات أوروبا ومترجمة بالإنجليزية والفرنسية في عصر نيوتن! عظيم! لم أكن أعرف هذا يا جدي.. لم أكمل بعد.. قال جدي

ولديهم أيضا العالم والطبيب الفيلسوف "إبن سينا" الذي ألف ٢٠٠ كتاب، أطلق عليه الغرب إسم "أمير الأطباء" و "أبي الطب الحديث، كان قد اكتشف "دودة البلهاريسيا" و"الإلتهاب السحائي"

وهل تعلم يا يعقوب من هو مكتشف الجاذبية؟ طبعا نيوتن يا جدّي! لا يا بُني نيوتن طور نظريات وجدها حاضرة، فقد سبقه "البيروني" الذي اكتشف أن

الأجسام تسقط على الأرض بسبب قوة الجذب المتمركزة فيها قبل نيوتن!

مذهل! لكن لماذا لا يوجد بيننا علماء في ذلك الوقت؟

كنا نيام تحت سبات الجهل والغفلة مثلما يحدث معهم الآن..

سنون طويلة أضعناها في اعتناق الخمور والجري وراء النساء كالمجانين، كنا مشتتين في أصقاع الأرض، كما تتفرق طيور الحجل أهدرنا الكثير من الوقت في جمع الذهب لكننا لم نطور من تجارتنا، تعرضنا للإضطهاد والظلم، تعرضت بضاعتنا للسرقة ووجدنا أنفسنا محاطين بالفتن والكراهية..

لكننا تطورنا يا جدي، وبنينا حضارة متطورة ومتميزة بكل المقاييس وإنني أرى فرقا شاسعا بيننا وبينهم!

مهد الحضارة

أصغي إليا جيدا يا بُني، هنالك مثلٌ شهير للعلاّمة العربي عبد الرحمان ابن خلدون قال فيه "إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار ولكن في باطنه نظر وتحقيق" لقد شربنا من أنهار علومهم حتى ارتوت أفكارنا وبنينا أمنا فكري، تعلمنا منهم أشياء كثيرة، فبعد أن انفرط عِقدُهم مع سلالة بني الأحمر، وقمنا باجتثاثهم من بلادنا وأقمنا لهم محاكم التفتيش بإبادتهم قررنا أن ننهض بأمتنا، إنتبه جدّي للذهول الذي شعرت به، لا تأسف لحالهم يا بُني فإن بيننا وبينهم تاريخا من العداوة لا يمكن تعديله أو تحريفه، يجب أن تتحرر من حياة البراءة فالعالم ليس مثاليا كما يبدو لك، أنا أقدّر إحساسك ورقّة قلبك ومشاعرك تجاه صديقك العربي، لكن ما سوف تكتشفه سيغير من نظرته للواقع، ربّت على كتفي بابتسامة ساخرة، تذكرت نظرة سمير إلى الغرب أثناء حوار دار بيننا، حينها اعتبرنا هو الآخر أعداء من حيث لا يشعر! فقد إعتبر أن الغرب إتخذ سياسة ممنهجة لضرب التعليم وتجفيف منابع الدين في الدول العربية وهذه السياسة تُعتبر حملة من الحملات الصليبية المعاصرة تنشط تحت غطاء التيارات الإلحادية، أحدثت فراغا كبيرا في عقول جيل كامل من الشباب العربي، فتصحر دينهم، باجتثات هويتهم ثم جاء دور الإعلام les medias لتوجيه هذه العقول المرنة ضد الحقيقة والمبادئ، وجرها إلى الميوعة و الإبتذال تحت سقف "التحرر" فأصبح الشاب العربي يدور حول نفسه باحثا عن ذاته التي فقدها من حيث لا يشعر! بُني! ركز معي ولا تدع تفكيرك يتشوش، لنعد إلى حديثنا، إن كان لنا الفضل فيما نحن عليه الآن يا إبني فهو تطوير ما بناه الأندلسيين، فالإنسانية مهما تطورت، فهي مدينة أساسا للعرب، فلديهم فيلسوف عبقري استطاع بملكته النابغة أن يبني علم الإجتماع والعمران البشري، فمقدمته الشهيرة بنت عليها

الحضارة الإنسانية، كل مفاهيم وأسس علم الإجتماع الحديث.

جدي لقد فهمت، لكن أصدقني القول لماذا أتينا إلى هذا المكان بالذات؟ ولماذا احتكرت عائلتنا بالذات هذا المكان؟

ألا ينبغي أن تُعرض هذه الكتب القيّمة في المكتبات العمومية، أو في المتاحف ليستفيد منها الملأ!

لماذا ظلّت هنا مقبورة كأنها أعجاز نخل خاوية!

طال صمت جدي ولم ينبس ببنت شفه، فما لبث أن حدق إليّ بنظرة حادّة ثاقبة كالصقر تغيرت معها تعابير وجهه، جعلتني أشعر بأن جدي أخطر رجل في العالم! فقد استيقظ كبريائه المعهود..

إسمعني يا بُني واصغي إليّ جيدا، إقامتك في هذا البيت سوف تلهمك ليالٍ طويلة من البحث والتفكير، سوف تندهش في بادئ الأمر أو ربما ستشعر بدوار لفرط فوضى الأفكار وعظمة الحقائق التي سوف تحيط بك من كل جانب، لكن إصبر وصابر وتحلّى بضبط النفس حتى تستطيع التغلب على ضعفك..

فوضى الأفكار

في هدوء الليل، يتألم الواعي لفرط شقاء فوضى أفكاره بصمت مهيب، بينما ينعم الغافل في خُمرة الجهل بهدوء موتٍ بطيء، فهذا يشقى بعلمه وذاك ينطفئ بجهله، فما بالك بالذي يتألم بشقاء فوضى أفكاره بين نيران الشر الملتهبة وشلاّل الضمير المنهمر ..

أكوام من الأوراق متناثرة على الطاولة..

بقايا شمعة استسلم فتيلها للإنطفاء ..

قلم يتيم تحنط بين أنامل جامدة، عجزت عن كتابة حرف واحد، لفرط الصدمة، إن الشرّ الذي اكتشفته في كتاب جدّي "بروتوكولات العائلة" فتح في داخلي غُرف مظلمة من الشهوة وحب السلطة والمال، وزرع في تراب قلبي بذرة من الكبرياء في كل يوم يزداد نموها أكثر... إشتعلت في داخلي حرب حامية الوطيس بين النفس والضمير، عادت تلك الأصوات التي تملّكتني في ذلك الحلم، الصوت الذي يشبه فحيح الثعبان والصوت الملائكي العذب... هذا يفرش لي سجادا أحمر للدخول إلى عوالم السلطة والمال وذاك يترجاني بأن لا أنساق وراء فضولي، يذكرني بصداقتي مع عمر وبأيام طفولتي البريئة..

أجدني جالسا وراء مكتبي حاضر الكيان شارد الذهن، أتحسس ما تبقى من ذاكرتي، إنني أجدها خرساء أكثر من أي وقت مضى، بينما أشعر بضجيج فوضى الحواس ينبض داخلي! أنّى لهذه الحرب النفسية أن تنتهي؟ كلّما تصفحت كتابا جديدا اكتشفت أشياء جديدة وشعرت بعتمة الجهل التي كنت أعيش في غياهبها،

أسرار عجيبة في فن القيادة، وكيفية السيطرة على عقول الجماهير، هنا العالم كله قطعان بشرية تلتف حول بلاط ملكي يسكنه بضع عائلات تتحكم في العالم من خلال رقعة شطرنج صغيرة! الشعوب هنا ليست بحاجة إلى الحرية بقدر ما تحتاج إلى العبودية، فقد دأبت على الطاعة فأصبحت تخضع غريزيا للأقوى، فالمغلوب دائما يقتدي بالغالب، خطابات بليغة لفلاسفة ورجال دين تكاد تكون سحرا لفرط جمال لغتها وبلاغتها، من أكثر الإقتباسات التي جذبتني ل "غوته" "الذي لا يعرف أن يتعلم دروس الثلاثة آلاف سنة الأخيرة، يبقى في العتمة.." وأظن أن عائلتنا الموقّرة قد تعلّمت الدرس جيدا... راجعت نفسي في كثير من الأمور وأحسست مع تتالي الأيام بتغيير في طُرق تفكيري وتغيرت نظرتي إلى العالم من نظرة بريئة لا تزيد على الدهشة إلى نظرة زائغة متعطشة للشهوات.. إرتشفت من قهوتي، وجدتها باردة كليلة شتاء في سيبيريا، تفقدت ساعتي، إنها الثالثة صباحا! يا إلهي هل ينطفئ فتيل الزمن، بمجرد اختفاء عقولنا في متاهة التفكير!

التفكير حياة

التفكير إدراك

بينما الإدراك ألم ..

الألم نزف.. والنزف كتابة

حاولت امتطاء صهوة القلم باحثا عن سيلان الحقيقة، فلم أستطع التحرر من حالة الجمود التي انتابتني، أحاول التحرك، بلا جدوى، نظرتُ إلى السقف، إنه بعيد أو كأنني أغرق، كل شيء جامد، أكاد أنفجر، إغرورقت عيناي.. أريد البكاء، أريد أن أصرخ ..

قواعد اللعبة

هذه المكتبة ملك للعائلة ورثناها أبا عن جد، وأنت فرد منها يا يعقوب، وجزء لا يتجزأ من المنظومة، أنت أحق بها من غيرك!

هذه الكتب، ليست إلا سببا إلاهيا ليعيد لنا مجدنا ولأنها كانت سر قوتنا وامتداد نفوذنا في العالم، فهي ليست إلا تثقيفا لِسيف نسلنا النبيل! لولاها لما كنا أسيادا، ولو لا عِرقنا لما تمكنا من العثور عليها! لقد تعبنا وسهرنا الليالي بين هذه الكتب لقراءتها وتحليلها ثم فك شيفراتها، لقد اكتشفنا فيها مهد الإنسانية وبحر العلوم، تعبنا يا بني في صقل هذه السيوف لتكون صالحة للسيطرة، وها نحن اليوم نتحكم في قواعد اللعبة بفضل نسلنا النبيل وبفضل عبقريتنا في العثور على هذا الكنز..

أي لعبة يا جدي؟

رقعة شطرنج وضعنا عليها أحجار خرساء لا تتحرك إلا بإذن منا!

إننا نسعى إلى منع الجنس البشري من أن ينعم بالعيش في سلام، فالخيرات التي منّها الله للبشر نحن أحق بها، لأننا الأفضل، وتلك الحروب والثورات التي عصفت في أغلبها بحياة الإنسان، والفتن التي تحيط به من كل جانب ليست إلا مؤامرة مستمرة سوف لن تنطفئ نارها إلا عندما نحقق أهدافنا..

وهل تتمركز أهدافنا عند هدف واحد؟ نعم..

السيطرة على العالم..

لقد بنينا في كل دولة من العالم "دولة عميقة" ذراعنا الذي نتحكم به في السلطة وأخرى ظلها الموازي عيننا التي لا تنام... وكيف استطعتم التحكم في حكومات دول بعيدة بهذه السهولة؟ الفكرة بسيطة يا بني وتطبيقها أسهل إذا كنت تتقن قواعد اللعبة وتعرف من أين تؤكل الكتف! أولا سيطرنا على أكبر المؤسسات المالية العالمية ابتداء من البنوك المركزية تمكنت نفوذنا من التوسع حتى سيطرنا على غرف المصدر الأصلي لكل أموال العالم وهو بنك التسويات الدولية الموجه الفعلي لكل بنوك العالم والذي يراقب ويتحكم في عملها ولك أن تفتخر أن هذا البنك هو ملك لعائلتنا الموسعة، وشركاؤنا سوف يأتي يوم وتتعرف عليهم..

بفضل حكمتنا ودهائنا أصبحنا المحرك الحقيقي للدول من وراء الستار، وفرضنا عليهم نظامنا السحري وهو الإقراض بالفائدة لنستطيع التحكم في سياساتهم، ثم استعبادهم للخضوع إلى إملاءاتنا، وكنا نفتعل التوتر في هذه الدول، بإشعال الحروب الأهلية بين الطوائف الدينية في الدول المحافظة ونضرب الإنتماءات الايديولوجية ببعضها في الدول الشبهة متحررة، أما بالنسبة للدول العلمانية المتخلفة فتمويل إنقلاب عسكري كافي لأن تعم الفوضى وينهار الإقتصاد، بعدها تعجز هذه الدول في تسديد ديونها في أوقاتها، عندها ننزل بكل ثقلنا بالضغط على الحكومة للتفويت في شركاتها الكبرى الإستراتيجية وتفتح لنا الأبواب للسيطرة على ثرواتها الباطنية ، ثم صنعنا أخطبوطا مخابراتيا يتجسس على شركات الإتصال ومحركات البحث ليتسنى لنا كشف أي معلومة نريد الوصول إليها، طورنا منظومة التجسس هذه باستقطاب الأدمغة النابغة من كل أصقاع العالم فوفرنا لهم الإحاطة اللازمة لتثقيف وصقل تلك العقول حتى صارت كفاءات خارقة إستطعنا بفضلها اختراق شبكات الإتصالات الداخلية المشفّرة لكبار الشركات العالمية ومؤسسات سيادة وقواعد مخابراتية عسكرية بحيث يسهل لنا

التحكم في أكثر عدد ممكن من المعلومات، والهدف من كل هذا هو تسليط أضواء التجسس على مناطق صنع القرار في العالم..

لاحظ جدّي شرود ذهني وذهولي، يعقوب هل أنت معي؟ أراك شارد الذهن هل هي الدهشة أو الخوف؟ فركتُ شعري وتلعثمت قليلا. في الحقيقة يا جدّي الإثنان معا! أنتم عصابة مهيكلة ومُنظّمة أكثر من المعاجم، إتسعت الإبتسامة على محياه فانفجرت إلى ضحكة كبرياء عالية، يا بُني لك أن تفتخر بانتمائك إلى نسل الملوك وأصحاب التاج..

ضيق عينيه وكأنه يتذكر شيئا ما، تنفس الصعداء واتسعت حدقتا عينيه ثم عاد إلى الحديث مجددا..

لقد تفرق بنو جنسنا في مناكب الأرض فانتشروا فيها كجري الوحوش في البرية، فبعد كل هذه السنون من الغربة و عدم الإستقرار، تعلّمنا الكثير من خلال احتكاكنا بمختلف الأجناس، فاكتشفنا أن الجماهير لا يوحدها إلا نظام أساسي واحد وهو "القوي يغلب الضعيف" عندما كنت في مثل عمُرك في هذا المكان بالذات و ذات الدهشة التي خيمت عليك الآن كنت قد شعرت بها، كان أبي قد أغلق عليا في هذا المكان بالذات، و بعد أن ينتهي من تلقيني الدروس ما ينهك ذاكرتي، كان يسليني في بعض الأوقات ببعض القصص الطريفة لترفه عني شقاء التنقيب عن الحقائق و المعلومات، كانت من بين تلك القصص الطريفة والمسلية التي تعلّقت في ذهني قصة "مملكة الضباء".

كانت رغم بساطتها رائعة بكل المقاييس لما تحمله من حِكم وعِبر، إستشعر جدّي الفضول الذي التمع بريقه في عيني، فهو يعرف جيدا أن أكثر ما يثير فضول المرء هو القصة.

هل اقُصّها لك؟

طبعا يا جدّي فقد كلّت نفسي من جمود البروتوكولات وحقائقها العظيمة..

أدخل يده في معطفه الطويل وتناول علبته الخشبية المنقوشة بالزخارف، فتحها فاستقر سيجاره الكوبي الغليظ بين أناملها، قطع منه جزءً صغيرا ثم أشعله بقدّاحته الذهبية ذات الفتيل العتيق، مجّ منه نفسا عميق فانفتح ستار القصة..

مملكة الضباء

كان يا مكان في قديم الزمان، كانت الأراضي الشاسعة في سهول "السافانا" الإفريقية كافية لأن تحتوي أنواعا كثيرة من الحيوانات البرية، الضارية منها والمُسالِمة، يختلفون في الصنف لكنهم يحتكمون إلى قانون فرضته الطبيعة وهو "إحترام السلسلة الغذائية لضمان البقاء" وقانون آخر فرضه أمر الواقع، ألا وهو "القوي يغْلِبُ الضّعيف"

كانت قطعان الضباء تحتل رقعة صغيرة من الغابة رغم كثرة عددهم، ولأنّ جنسهم فُطر على ألا يكون إلا فريسة للضواري، قرروا إنشاء "نظام اجتماعي" ليحميهم من ظلم وبطش الحيوانات المُفترسة، التي لا ترحم في صيدها العشوائي صغيرا ولا كبيرا..

إنعقد اجتماع الضباء بطلب من الحكيم "سرحان"، كبيرُهم الذي لطالما حاول توحيد صفوفهم ليتشاوروا فيما بينهم فكثُر اللغط والكلام دون فائدة...

صرخ الضبي "سرحان" ليضع حدا للنقاشات العشوائية التي تحولت إلى فوضى عارمة، عمّ الهدوء فهدأ لغط القوم، إعتلى السيد سرحان جذع شجرة بارزَ الصدر مرفوع الرأس في شموخ، نظر طويلا إلى قطيع بني جلدته الذي أصبح يتآكل يوما بعد يوم..

يا معشر الضباء، إني أدعوكم من منبري هذا لتستمعوا لما سأقوله، فأنصِتوا إليّ جيدا ولا تقاطعونني..

لقد هرِمتُ وتساقط شعري وأنا أهرب من بطش الأسود والفهود وأُناور دهاء

الذئاب ومكر الثعالب ودسائس الضباع، لكم حاولت صد هجماتهم الجماعية والمنفردة لأراضينا لكن بلا جدوى! ولن تنقطع هجماتهم البشعة حتى يجفّ نسلُنا، ها قد جاء يوم الفصل لنجمع شملنا بعدما انفرط عِقدُنا، وتشتت نسلنا وتبعثر..

أولا يجب علينا اختيار أخيارنا، نخبةٌ من صُلبِنا، مجموعة ضباء قوية، تتميز بالحكمة والدهاء من مختلف القطعان، يمثلوننا في "مجلس" يعقدون فيه الإجتماعات ليتباحثوا في شؤوننا، لعلّهم يجدوا لنا سبيلاً لمواجهة ظلم السباع، ثم نوليهم أمورنا لعلها تتحسن، خيرٌ لنا من حياة التشتت والتشرد هذه..

إنتشرت علامات الرضا والبهجة في وجوه الضباء، ورحبوا بفكرة الحكيم "سرحان" فتم تفعيلها في الحين.

بعد أيام معدودات، تم اختيار النخبة المثقفة من الضباء لتشكيل مجلس شورى برئاسة الحكيم سرحان، فاستأنفوا عملهم بنشاط، وشرعوا في انعقاد جلسات متتالية تشاوروا فيها في عدّة أمور، ثم خرجوا على قومهم بخمسة قرارات جديدة ألا وهي..

أولا، منع التسكّع المنفرد للضباء دون فائدة.

ثانيا، عند انتشار القطعان للبحث عن الغذاء يجب أن يسيروا في شكل مجموعات كبيرة، بحيث تلتفّ كل مجموعة منها حول صغار الضباء والحوامل والطاعنين في السن.

ثالثا، الحرص على الحفاظ على الأمن الغذائي بحيث نزرع الأراضي البيضاء القريبة، لتجنب البحث عن مراعي أخرى بعيدة.

رابعا، إختيار مجموعة من الضباء القوية، نوفر لهم ما تشتهي أنفسهم "لحراسة

الحدود" كذلك في شكل مجموعات.

وأخيرا، يجب أن ننظر بعين الإعتبار لقانون السلسلة الغذائية، ولكي نحافظ على ديمومة نسلنا ونسل بقية الحيوانات يجب علينا التضحية بتقديم ضبيٍ كل يوم للسباع، لكي نتجنب دسائسهم ونتقي شرهم..

رحّبت قطعان الضباء بهذه القرارات رغم تحفظهم على النقطة الأخيرة الموجعة التي تفرض عليهم تقديم ضحية كلّ يوم، في حين كانوا يفقدون من ٤ إلى ٥ ضباء يوميا بشكل عشوائي!! لكن النسيان أعمى بصيرتهم..

توحّد القطيع واستقبل العهد الجديد بصرخة قوية..

"فليحيا قطيع الضباء حرًا منيعًا أبد الدهر"

إستمر الحال لسنوات، توحّد فيها القطيع ونظرا لتزايده في العدد توسعت أراضيهم.

إنتشر العدل وعمّ السلام، لكن قطعان السباع المجاورة إستاؤوا من هذا النظام الذي قيّدَ شجعهم وألجم نهمهم للصيد، وخوفا من انتشار عدوى العدالة والنظام إلى صفوف قطعانهم، قرروا صنع المكائد والدسائس لقطعان الضباء، فتمكنوا من استقطاب شرذمة من الضباء المتسلّقة الطامعة في السلطة، كعُملاء وتم إغرائهم بمراعي خصبة وبالأمن والسلام الدائم، كمكافأة لتعاونهم، فقاموا بزرع الفتنة وبث الفوضى في قطيع الضباء عن طريق هذه الشرذمة العميلة، وأشاعوا أن خطرا داهما يهدد نسل الضباء بالإنقراض نظرا لفقدانهم ضبيًا كل يوم، لتأليب الرأي العام على "مجلس الضباء" ونعته بالخيانة والعمالة للسّباع... فصنعوا "بروباغاندا" مغالطة خبيثة، سرعان ما انتشرت في القطيع كالنار في الهشيم، فدبّت الفوضى

و انتشر الفزع بين الصفوف، و انطلت هذه الخدعة على كثير من التافهين في القطيع فقرروا الإنتفاضة و بتواطئ من ضباء "حراس الحدود" الذين تم إغرائهم بالمشاركة في الحكم عند النجاح في الإنقلاب، تم حلّ "مجلس الضباء" الشرعي، و تمّت شيطنة أعضائه.

ذُبحت شرعية مجلس الضباء الشرعي على حجر بارد، في حين فُتحت الحدود، وتفرّق القطيع لِفرق صغيرة، وسرعان ما انقطع حبل وحدتهم وانفرط عِقدُهُم من جديد..

في الأثناء احتفلت الضواري بهذا الحدث، فقد نجحت خطة الأسود (صاحبة الفكرة) في السيطرة على قطيع الضباء من جديد، فهي قد أوكلت هندسة المخطط للذئاب الماكرة، وبالتعاون مع الضباع والثعالب التي فرقت بدهائها صفوف القطيع إلى قطعان صغيرة باستعمال سياسة (فرّق تسُد) تمت المهمة بنجاح..

بعد حلّ مجلس الضباء تم القبض على أعضائه من طرف حراس الحدود بتهمة "الخيانة العظمى" لأنهم أحدثوا قانونًا تسبب في جريمة قتل يوميا في حق الضباء، وتم تحويل الحكيم سرحان إلى وجهة غير معلومة، وفي ذات اليوم تمّ تنصيب ضبي "إمّعة" جديد على رأس القطيع، لا يفقه في أمور القيادة شيئا، وتم منحه جميع السلطات من طرف السباع ليسهل التحكم في القطعان بشِعارات شعبوية جوفاء، ورفعت الجلسة..

عم الفرح قطعان الضباء واحتفلوا بثورتهم المجيدة، ورقصوا لنجاحها طربا، بينما انتكست عزيمة فِرقة صغيرة منهم، طأطئوا رؤوسهم في حزن وأسى على ما آلت إليه الأمور، تألموا لضياع نخبتهم الصالحة، واغتيال تجربتهم الإستثنائية، تأسفوا على ضعف بصيرة بقية القطعان التي أعادت نفسها إلى قفص العبودية من

جديد دون وعي منها..

تتالت الأيام وبدأ القطيع يتآكل من جديد شيئا فشيئا وبشكل ملحوظ أصبح يفقد من ١٠ إلى ١٥ ضبيا في اليوم..

على ضفاف نهر التماسيح، وقف الحكيم سرحان متثاقلا، ألقى بنظراته الحزينة في اتجاه مملكته التي تم نفيه منها فقال:

"إنّ المجلس الذي انقلبتم عليه طمعا في السلطة، والحدود التي فتحتموها لأعدائكم بجهلكم وغبائكم، سوف لن يورث لكم هذا إلا نارا تلتهم ما تبقى من نسلكم الضعيف، يا خيبة مسعاكم، فبئس ما فعلتم، لقد ذبحتم حريتكم بخنجر جهلكم المسموم، فتحتم على أنفسكم مسغبة لن تنتهي إلا بانتهاء نسلكم.

أعتذر منكم يا بني جلدتي فقد أخطأت في تقدير الأمور فالإصلاح لا يصلح إلا بأنياب بارزة تحميه من غدر العملاء وتفاهة الشعبوية."

تمّت القصة مع انطفاء جمرة السيجارة، هل أعجبتك يا بُني؟ بالتأكيد إنها رائعة بكل المقاييس، إحتفظت في ذاكرتي بالكثير من القصص الطريفة أمثالها، كثيرا ما تنقل القصة التاريخ أكثر من الكتب.

تنفست الصعداء.

حدّثني يا جدّي عن الحقوق والحريات هل تؤمنون بها؟

إرتسمت على محياه ابتسامته الساخرة المعهودة، نظريا نعم "قال جدّي" لكن تطبيقيا لا يا بُني. لا تصدق أكذوبة المنظمات الحقوقية فنحن من صنعها كغطاء حريري لتخفي بشاعة المشهد.

لاحظ جدّي توجّسي، أقصد حقيقة المشهد يا إبني، إسمعني يا يعقوب أنت الآن تنظر إلى الواقع من خلال نافذة معينة وهي "العاطفة" لا ألومك على ذلك لِصغر سِنّك، لكن عليك أن تفتح عديد النوافذ الأخرى لتنظر منها إلى الواقع، فسوف تكتشف عديد الأشياء..

نوافذ أخرى كيف ذلك؟

ضيق عينيه، نافذة الحذر مثلا "قال جدّي" عليك أن لا تصدق كل ما تسمعه! وأن تشك في كل شيء، وأن لا تضع ثقتك في غريب..

وهنالك أيضا نافذة الصمت..

صمت! كيف ذلك؟

أنصت لكلّ مُتحدثٍ حتى ولو كان سفيها... فعندما تترك حرية الكلام للآخر سوف تكتشف الأخطاء والزلّات ما بين الكلمات، سوف تتضح لك شخصية المُتكلم، بينما تختبئ أنت وراء جدار الصمت!

داهية أنت يا جدّي!

مم وهل هنالك نوافذ أخرى؟

نافذة الإستعلاء يا بُني..

عليك أن تعتزّ بنفسك، لا تسمح لأحد بأن يقتحم عالمك الخاص لكي لايكتشف أسرارك ونقاط ضعفك، واجعل كلمتك هي العليا.. لا تكثر من الضحك أمام الناس فتتلاشى هيبتك!

بكل بساطة يا يعقوب إفعل ما نفعله نحن..

وماذا تفعلون أنتم؟

فعلنا عكس ما يفعله الآخرون..

عشقنا الكتب مثلما عشقوا الكسل والخمول، فضعفت أبصارنا بين الحروف..

سهرنا الليالي نهندس مخططاتنا في صمت، بينما سهروا الليالي في الثرثرة الفارغة

آمنّا بأنفسنا وبمستقبلنا فحققنا أغلب أحلامنا بينما هم آمنوا بتاريخهم فتحنّطوا معه!

أنفقنا الذهب لصالح مشاريعنا، بينما أنفقوه لأجل عروشهم ونزواتهم وشهواتهم..

جدي بماذا تفسر نُبل نسلنا؟ ألسنا بِعباد مثل باقي بني الإنسان؟ وضّح لي أكثر..

نحن شعب الله المختار، هذا ما سيقولونه لك بَنِي عِرْقِكْ... لكن الحقيقة التي لا يعلمها إلا قليل، أننا نحن من اختار الله، وخيارنا الذي كان عن وعيٍ وإرادة حرة جعل منا شعبا فريدا في نوعه!

صنعنا ما صنعنا يا بني بذكائنا وإن شئت فقل بدهائنا ودَأْبَنَا، فافتخر بنفسك، فإنك من نسل الملوك.. ولأننا خلقنا لنحكم، فيجب عليك ارتداء ثوب الكبرياء أولا، ثم أغلق على نفسك هذه الغرفة الواسعة، ولا تخرجنّ منها إلا شامخا، متشبعا بالعلم، ثم تَجهّز فإن هنالك طقوس عقائدية تنتظرك لتُحصّن بها نفسك، وتكمل المشوار... وبعد ذلك يجب عليك أن تكون حذرا على الدوام يا يعقوب، ولا يغرنك ما اغترفت! فإن هنالك عملاقا نائما اسمه "الإسلام" متى نهض هلك نسلنا وتشتّتَ من جديد..

حيرة

الساعة منتصف الليل، إنسجم الهدوء مع العتمة، صمت مهيب، لا شيء ينبُس في حضرة هذا الوقار الجنائزي، سوى الفوضى التي تنبعث من مدينة الأشباح التي تستقر داخلي، أفكار متناقضة تطوف عشوائيا حول عقلي وتتحرش بذاتي، تكوّرتُ على نفسي في فراش اللامبالاة، أتحسس خيط الهروب إلى الماضي البريء لكن بلا جدوى، كلّما حاولت التملّص أجدني واقفا على ناصية الشهوة زائغ البصر..

أحاول الإسترخاء فتتدفق أنهار المغريات من كل صوب.. أضع رأسي بين ذراعي فتتحول هذه الفوضى إلى ألم فيعود الغُراب لينقر على رأسي من جديد.. أنّى لهذه الدهشة أن تنتهي!

لقد رماني جدّي في فوهة بركان وتركني أتخبط في الحمم، وضعني في موقف لا رجوع فيه إلى الوراء، إنّني قاب قوسين أو أدنى من بلوغ حلم لم يحققه ٩٥ بالمائة من سكان الأرض! هل يستحق هذا الحلم كل هذه التضحية؟ لكن ثمن التنازلات باهض! وهل يستحق جدّي كل هذا العناء والثقة؟ لطالما أحببته لكن سلوكه الإستعلائي مع عامة الناس يُقلقني، برج كبريائه طويل جدا ولا يسمح لأحد بتسلّقه..

أُغمضُ عيني وآخذ نفسا طويلا، أشعر بذاتي تتوسّع حتى رسمت قبة كالسماء فأمطرتني شُهُبا من الأسئلة ثقبت رأسي، هل تستحق الحياة كل هذا العناء؟

الإنسان يستمر لاهثا وراء حياة غابرة، لضعف حيلته بينما روحه تشيخ فوق صهوة العَجَلِ لفرط غفلتها، فيتآكل المسكين، إلى أن ينطفأ ما تبقى من فتيل عمره،

العمر قصير جدا! وهنالك نهاية حتمية اسمها الموت! أخاف أن أصطدم بحقيقة أن لهذا الكون خالقا فأكون قد عصيته فأجده ينتظرني حاملا سوط العذاب في حياة ما بعد الموت!

إنقبض صدري فعاد صوتُ فحيح الثعبان ثانية يلامس نفسي كأنه يداعبها بلسانه، إنه يراود النفس عن نفسها! لماذا الهروب من مجدٍ اقترب موعده؟ لماذا أجهد نفسي بعراقيل رسمتها تهيآت أفرزها ضمير أفسد عليَّ كلّ لذّة؟

سوف أكمل المشوار، إن جدّي عظيم وسوف يظلّ قدوتي مهما حصل، توقف التفكير فجأة، تذكرت نظرات الخوف التي تخيم على كبرياء جدّي عندما ينطق لفظ الإسلام، لماذا هذا الدين بالذات يُرهب جدي أكثر من أي شيء آخر! لقد أطلق عليه إسم العملاق النائم، أظنني في حاجة إلى توضيح من طرف جدّي..

العملاق النائم

لا أدري كيف هجعت فوضى الأفكار وتركتني أرتمي في أحضان النوم..

إنها العاشرة صباحا، نهضت من الفراش. متثاقلا أكثر من أي وقت مضى، أجدني أتجول بين رفوف الكتب أبحث عن مجهول بلا هدف..

فُتح الباب، فدخل جدّي بقامته الفارعة تسبقه رائحة عطره التي تشبه القرفة، هاه كيف أصبح بطلي؟ لازلت أتخبط في أول الطريق يا جدّي..

همم عندما تعتاد النهوض باكرا يا كسول سوف تتخلص من حالة التخبط هذه!

حسنا جهز لنا كوبين من الشاي وشطيرتين محليتين بالعسل، ثم نستأنف الحديث، فإني أتحسس الكثير من التساؤلات في جعبتك..

جدّي حدّثني عن الإيمان والأديان وخاصة دين الإسلام!

ضيق عينيه يتفحص تفاصيل وجهي وأدخل يديه في جيب معطفه الطويل وتناول سيجارته أشعلها فمجّ منها بِنهمٍ مُتوتّر و ارتشف من الشاي ونفث مع البخار دخان مُتقطّع..

عندما نتأمل في خلق الكون، إبتداءً من خلق الإنسان والحيوان والأنهار والبحار والغابات، كل الكائنات الحية التي تنعم بخيرات الأرض وترتع في مناكبها نهارا وتتغطى بقبّة السماء ليلا مستمتعة بالنجوم المعلقة كفوانيس مضيئة، يصل الإنسان إلى حقيقة أن هذا الكون لا يمكن أن تكون لطفرة الصدفة أن تصنع

كل هذا التوازن بين مكوناته، إختلاف الليل والنهار، الفصل بين ملوحة البحر وعذوبة النهر، تعاقب الفصول واعتدال الحرارة التي لو ارتفعت لاحترق كل شيء ولو انخفضت لتجمّد كل شيء... وما علاقة الإسلام والأديان بكل هذا؟ من المفروض أن يجيبنا العلم على كل هذه الأسئلة!

وهو كذلك، لكن لا تستعجل سوف تتضح لك بعض الأمور التي كنت تجهلها؛ بما أن العلم يهدف للوصول إلى حقيقة الأشياء، نستنتج من كل هذا أن هنالك قوة خارقة للعادة ولقوانين الفيزياء، هي التي تتحكم في توازن كل هذا الكون الفسيح..

عندما نقوم بمقارنة بين الأديان أيهم أقرب إلى المنطق والعلم، نجد أن الإسلام أكثر دين سلّط الضوء على قيمة العلم والعلماء، وقد ساعدنا وسهّل لنا الوصول إلى عدّة حقائق علمية استعصى علينا تفسيرها.

جدّي حدثني أكثر عن الإسلام، ولماذا كل هذه الحقائق والكراهية تلتف حوله؟

-نحن مؤمنون يا بُني بالله الذي خلق هذا الكون الفسيح، ولأننا أذكياء بالفطرة فقد استعملنا هذا الذكاء في السيطرة على العالم، لأننا الأفضل، فقد ضحينا من أجل هذا المجد ودفعنا لأجله الغالي والنفيس، ويجب أن تفتخر بعائلتك وتشكر الله بأن فضّلك على باقي البشر..

أما بالنسبة لدين الإسلام فلا شأن لنا إلا بالمسائل العلمية التي يحتويها كتابهم.. تقصد القرآن! نعم أعترف أن محتواه يعتبر معجزة بكل ما في الكلمة من معنى! كيف ذلك يا جدّي؟

القرآن أتى بتشريعات وأحكام على نحو شامل كامل لا نقص فيها ولا خلل، وتشمل جوانب الحياة جميعها، فهي تنظّم حياة الأفراد والجماعات والدول، تراعي الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والفقير والغني، والحاكم والمحكوم، في كل المجالات الدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية. ومن الإعجاز التشريعي، تشريع الزواج لتنظيم العلاقة بين الذكر والأنثى، ولاستمرار بقاء النسل وديمومة الحياة. ومن الإعجاز العلمي نجد أن عدّة علماء ملحدين ومسيحيين قد أصيبوا بالذهول لما اكتشفوه من حقائق علمية تتطابق مع نصوص أو فلنقل آيات موجودة في القرآن منذ حوالي ١٤٥٧ سنة، والأمثلة كثير، إليك بعضهم.

الجراح موريس بوكاي، الذي اعتنق الإسلام، وتعد من أكثر القصص غرابة، وهي ترتبط بفرعون الذي طارد النبي موسى عليه السلام..

بدأت قصة إسلامه الغريبة عندما أصدر رئيس فرنسا الراحل فرانسوا ميتران، في القرن التاسع عشر، أوامر بجلب فرعون مصر، إلى فرنسا لإجراء بعض الدراسات الأثرية عليه، وعندما انتهت مراسم استقبال المومياء الملكية، تم نقله إلى مكان خاص موجود في مركز الآثار الفرنسي، ليقوم بعدها أبرز أطباء التشريح وعلماء الآثار بدراسة هذه الجثة. كانت أبحاث الجراح مختلفة عمن حوله، حيث كان جل اهتمامهم هو ترميم المومياء للحفاظ عليها لأطول مدة ممكنة، بينما انشغل بوكاي في تحليل كيفية وفاة ملك مصر، فرعون، وبينما كان العالم بوكاي منشغلا في إعداد تقرير حول كيفية وفاة الجثة، وصل في أبحاثه إلى أن سلامة الجثة بعد مرور كل تلك الأعوام تعود إلى غرق فرعون وتحنيط جثته مباشرةً بعد وفاته، وكان فخورًا باكتشافه إلى أن أخبره شخص ما بأن القرآن قد تحدث عن هذه الواقعة قبل ما يزيد عن ألف سنة!

عظيم! يعني القرآن سبق العالم بوكاي إلى الحقيقة منذ قرون! نعم يا بُني، وكذلك حدث مع الدكتورة إنجريد ماتسون، ومن تكون؟ هي أستاذة الأديان في كلية هارت فورد في ولاية كونتيكنت الأمريكية، قامت بدراسة الفنون الجميلة والفلسفة في جامعة ووترلو، قامت باعتناق الإسلام في السنة الأخيرة من حياتها الجامعية بالرغم من أنها ولدت على الديانة المسيحية ولم تكن مسلمة، كان سبب حبها للديانة الإسلامية هو شغفها بالفن، حيث كانت تقوم بالرحلات إلى المتاحف في شيكاغو، وتورنتو، ومونتريال، وقامت بعدها بزيارة متحف اللوفر في باريس، واندهشت من جمال الفنون على مر العصور البشرية.

وفي هذه الفترة التقت بشاب مسلم شرح لها سبب امتناع المسلمين عن تجسيد الله جل جلاله في لوحات ملموسة أو تماثيل، لأن ذلك يمكن أن يشبه عبادة الأوثان، ثم نصحها بالتعرف على الله والتقرب منه من خلال التفكر في إبداع وجميل صنعه.

جدّي ألا تلاحظ أن العلماء الذين تقاطعت اكتشافاتهم مع حقائق القرآن، قد أعلنوا إسلامهم! بلى يا بُني فإن الإنسان بطبعه يحتاج إلى دين كنظام اجتماعي لحياته وملجأ لذاته الغير مستقرة ليُنهي بذلك تسائلات عقله الواعي... أما بالنسبة للعلماء المؤمنين فإن أكثرهم أشد الناس خشية لله، لأنهم عرفوا الله من خلال الحقائق التي اكتشفوها..

غياهب الزنزانة

هجع الليل وسكن معه كلّ شيء، سوى صوت قطرات الماء تنزل متقطّعة من الحنفية، لتستقرّ على إناء حديدي واسع، صوتُ طقطقة مستفز عبث بأعصابي وكأن القطرات تتساقط فوق رأسي! العتمة تحجُب كلّ شيء، ما عدا بصيص نور اقتحم قضبان شبّاك الزنزانة الصغير، صفّق غُراب اليأس بجناحيه مُعلنا ليلة طويلة أنّى لأوجاعها أن تنتهي..

أجدني مُتكورًا على نفسي في ركن مظلم، كلّ شيء داخلي محطم، انطفأت فوانيس الأمل، فما عدت أسمع سوى، صفير الرياح كأنها تنتحب لحالي، يزداد صفيرها حتّى تحول إلى عواء ذئب شرس، قبضت على يدي من شدّة الخوف، فصرخت صرخة طار معها سربٌ من الغِربان، ثم ارتخت أطرافي فانتحبت في صمت..

مذ ذلك اليوم المشؤوم الذي قتلتُ فيه جارتي العمياء وحبل المشنقة يتراقص أمام عيني مثل رقّاص ساعة عتيقة تُركت منسية في قصرٍ مظلم، تحولت حياتي فجأة إلى جحيم، فقدت الشغف ومات فيّ كلّ شيء، كيف لِمُسلم عاقل أن يفعل بنفسه ما فعلت؟ لم أكن أعرف أن "فتنة الخمر" مؤذية إلى هذا الحد! لم أستطع نسيان تلك الجملة التي نطقتُها في أول ليلة قضّيتها في الزنزانة

راودتني الخمرُ عن نفسي، شرِبتُ فزنيت ثم قتَلْت..

ثم ماذا؟ أجدني مغتربا سجينا قاب قوسين أو أدنى من الموت!

ا هذا هو حُلُم الهجرة؟ يا ليتني لم أفكر في هذا الأمر، بل يا ليتني متُّ قبل هذا!

مذ وطأت قدماي هذه الأرض الملعونة لم أرى خيرا أبدا، حتى يعقوب، الشيء الوحيد الجميل الذي حدث لي في هذه الغربة المشؤومة، اختفى ولم يظهر مجددا، تذكّرتُ ابتسامة أمينة المكتبة العذبة والحنون فهدأ خاطري قليلا، فما لبث أن انفتح باب في ذاكرتي، أمي! أبي! إخوتي! فأجهشتُ بالبكاء فلم أشعر إلا و ابتلعتني غياهب النوم..

نهضتُ في الصباح فوجدت نفسي مستلقيا في فراشي في بيتي لكنني على هيئة طفل! وكأن الزمن عاد بي إلى الوراء..

ساقية سيدي يوسف" الحدودية، تلك القرية الجبلية، مسقط رأسي ومرتع طفولتي البريئة، لطالما أيقظت قريتي إلهام الشعراء والأدباء وعبثت بوجدان الرسامين.

تناثرت بيوتها البيضاء المرصعة بأحجار "القرميد" على سفح جبل أخضر استقر كالطود في تواضع وشموخ، راسما الحدود الفاصلة بين تونس والجزائر، توغلتُ بين التلال والأودية، أركض وراء فراشة فُتنتُ بلونها البنفسجي، أتوقف قليلا فأتنفس الصعداء، تاه بصري بين أشجار الصنوبر الفارعة، فوقعت في أسر الجنان الضائعة التي حشرها الإهمال وراء قضبان الغفلة والنسيان ..

الضباب يعانق الجبل في خجل، يلامس قمّته بوشاح أبيض ينسدل على جانبيه، وكأنه يهمس في أُذنه ألاّ نفترق أبدا يا صديق الصباح، فلا أريد أن أستيقظ من غفوتي، وما لبثت سُكرته حتى أشرقت الشمس تلامسه بخيوطها الذهبية برفق، تنبس مبتسمة "أيا سِتار الطُهر قد أزحت النور عن جبلي، ألا انهض وتفرق في سبيلك، لتنعم الكائنات من تحتك بدفء أشعتي، فمناكب الأرض تنتظرها لتهديها رزقها، ليس فِراقاً يا ضبابِي الحنون بل عودة مع غد أفضل"

جلستُ القرفصاء أستظِلُّ تحت شجرة صنوبر، سافرتُ بناظري نحو الفناء لتتحرر الأحاسيس من الجمود، وتنفست الصعداء كأنما استنشقتُ إكسير الحياة، فاستيقظ الإلهام من صلبي، فكاد يتدفق بسيل من الكلمات أنّى لها أن تنتهي، بينما تفجّرت عيون الإحساس بعذوبة لامست روحي..

إنصهرت النفس مع الهدوء وانسابت لفرط شوقها إلى الفضفضة، فكان بينهما حوار بلغة الطبيعة المشفرة، التي لا يفهمها إلا شاعرٌ فحل ولا يفقهها إلا عاشقٌ صبٌّ..

تطهّرت النفس من تراكمات الألم، غفوتُ في حضن الطبيعة كاستسلام رضيعٍ في حضن أمه.

شعرتُ بسحابة تمرّ من فوقي، فتحتُ عيني فوجدتُه واقفا أمامي يحدّق إليّ بعين ثاقبة!

فركتُ عيني لأستيقظ من غفوتي، رجلٌ ستّيني مُحدودب الظهر يتكئ على عصا خشبية مدبّبة تُشبه في أعلاها رأس حيّة، تستقرّ على رأسه عمامة صفراء مهترئة، أكل عليها الدهر وشرب، شعرتُ ببرودة فوق رأسي، لا أدري كيف وصل بهذه السرعة بجانبي دون أن أتفطّنُ إليه وأنا الفتى الريفيّ الفَطِنُ! انتبه إلى ريبتي فارتسمت على محياه ابتسامة كبرياءٍ ساخرة، برزت من ورائها أسنان صفراء متفرّقة.

أعذرني على تطفّلي يا بُني أظُنني ظللتُ الطريق إلى بيتي، هل أستطيع الإستراحة بجانبك لدقائق؟

طبعا يا جدّي لك ذلك! ما اسمك يا بُني؟

عمر، جحضت عيناه لسماعه اسمي! فرد ضاحكا، إعذرني يا بُني فأنا لا أطيق

سماع هذا الإسم، فإنه يُذكّرني بولد شقي رماني بحجر شجّ به رأسي! سلامة رأسك يا جدّي، إقترب مني فأغشتني رائحة قذرة، إن صوت هذا الرجل يشبه في بحّته فحيح ثعبان! لم يطمئن قلبي له منذ رأيته..

ما بك يا بُني هل أنت خائف؟ معك حق فإن رؤية غريب في غابة موحشة كهذه تجلب الشكوك، هل أنت عطشان؟

شعرت فجأة بعطش غريب، نعم يا جدّي هل لديك ماء؟ لا لكن لدي ما أعذبُ منه وأحلى! تناول القِربة المعلّقة بخيط على رقبته وقدّمها لي، هيا اشرب يا بُني إن هذا الشراب يحافظ على الشباب ويطيل في العمر... أخذتُ القربة لأشرب منها، فتهيأ لي السائل الذي بداخلها كأنه دم متخثّر! فزعت من لونه الأحمر فانتبه الرجل إلى ريبتي، لا تخف يا بُني اشرب سوف تجده في بادئ الأمر مرّا لكن سرعان ما تتحول تلك المرارة إلى عذوبة تنتشي منها الروح! هيا اشرب فقد عصرته بيدي.

حسنا يا جدّي الطيب، فتحتُ فمي لشدّة العطش، شربت منها فما إن ابتلعت أول جرعة حتى اختنق حلقي، إنه مرّ كأنه حنظل! رميتُ القِربة من يدي، تسمّرتُ في مكاني فتحولت ابتسامة الرجل إلى قهقهة قوية، لقد حصل المقصود لقد حصل المقصود..

أي مقصود يا رجل؟ وما هذه القذارة التي شربتها! شعرتُ بكل شيء حولي يتماوج وأنا أترنّح كقارب صغير غلبه الموج، تثاقل لساني في النطق وشعرت بالإختناق والدوار، بدأت تفاصيل وجه الرجل تتحول، هاج شعره المجعّد فبلغ كتفيه، واحمرّت عيناه حتى صارت كالجمر، تحولت أضافره إلى مخالب وتضخمت بنيته وتمزّقت ثيابه حتى برز جسده المشعر، فزعتُ لهذا المنظر المرعب، من أنت؟ إنسي أم جنّي؟

ضحك ساخرا ثم قال لا هذا ولا ذاك أيها الأحمق!

أنا "لوسيفر" أنا "الشيطان" أنا ملك النور وها قد أوقعتك في شباكي كما أوقعت الكثير من بني جنسك أيها الأبله المسكين! لقد غويتك بالخمر وسوف تحصد شرّ ما فعلت، نظر إليّ نظرة سخرية وكبرياء، ثم فرّ هاربا ينطّ كالجراد..

شعرت بالبرد الشديد وكأنني قفزت في الماء، فتحت عيني فوجدتُ نفسي مقرفصا في نفس الركن في الزنزانة الملعونة، يقف أمامي الحارس يحمل سطلا فارغا لقد أفرغهُ علي..

هيا انهض أيها المجرم، ينتظرك يوم طويل لتنظف القذارة من الزنازين وبيوت الحمام، أنت لست في نزل! ثم استدار ليمضي في حال سبيله فما لبث أن توقّف ونظر إليّ باستعلاء، لك أن تحتفل أيها المجرم فقد أنقذتك الأقدار من حبل المشنقة، فتلك المرأة لم تُمت بعد..

متاهة الروح

لا أدري كيف قضّيتُ تلك الليلة وأنا اناور الأسئلة التي أفرزها عقلي، كيف أجد الإجابات المقنعة وذاتي لازالت مشتّتة؟

تنفستُ الصعداء وارتشفتُ من قهوتي المُرّة، ثم نهضتُ مُتثاقلا لأبدأ رحلة التنقيب بين رفوف المكتبة الأولى التي تستقرّ في شموخ في غرفة المعيشة، إن الكتب فيها قد نُظّمت على حسب المجالات، كتب التاريخ غطّت نِصف الجناح الأيمن وكتب الفلسفة غطّت النصف الثاني، بينما انتشرت كُتب علم النفس وعلم الإجتماع في أعلى الجناح الأيسر، تحتها استقرّت كتب علم الفلك والسير الذاتية لكبار السياسيين والمؤلفين.

يتوسّط الجناحان تقسيم بعرض نصف متر يحتوي على خمسة طوابق تحمل مجلّدات قديمة وعتيقة، اكتشفت أنها كتب دينية في مختلف الديانات السماوية.

أربعة نُسخ من كتب الإنجيل الذي نزل على نبي الله عيسى، "متى" و "مرقس" و "لوقا" و "يوحنا" ونسخة من كتاب "التوراة" لنبي الله موسى، ونسخة من كتاب الزبور لنبي الله داود، ونسخة من كتاب "القرآن" لنبي الله محمد بينما كنت واقفا أتأمل الكتب الدينية شدّت انتباهي نجمة مذهبة تحمل في جوفها درع أحمر تستقر كالتّاج فوق منتصف المكتبة كأنها جُندي مدجّج خرج لتوّه من القرون الوسطى، إنتابني الفضول في لمسها، تحسستها بأناملي ثم قبضتُ عليها بأصابعي، إقتربت قليلا كي امتّع ناظري ببريق الذهب، فلاحظت سهما تحتها مباشرة منقوش على خشب المكتبة يُشير في اتّجاهي، ضيقتُ عيني واشتعلت شموع الشغف في عقلي..

إنها شيفرة!

وجود هذه النجمة الذهبية في هذا المكان بالذّات ليس اعتباطيا لكأنها ترمُز لشيء ما! وما علاقة السهم بها؟

يبدو أن في الأمر حيلة أحاكها جدّي الماكر، إنه بارع في تعقيد الحلول ليعبث بعقل الباحث، تذكرت عندما كان يُهديني هدايا معقدة في أيام طفولتي، كان يخبئ مفتاح الهدية في مكان ما ثم يرسم مجموعة من الرموز لكي أستعين بها لكأنني أبحث عن كنز! تذكرت نصيحته الشهيرة، "القوالب الجاهزة للحمقى فقط، بينما الأذكياء عليهم أن يُفصّلون القوالب كيفما شاؤوا"

عادت فوانيس الذاكرة لتُسلّط الضوء على شيفرة النجمة، ضيقتُ عيني من جديد أتأمل رأس السهم، إنه يحتوي على رسم صغير، نفختُ على الغبار فاتّضحت لي يدٍ منقوشة داخل مثلث السهم، شعرت بجليد الدهشة داخلي يذوب شيئا فشيء، من المحتمل أن هذه النجمة ليست ثابتة أظنها قابلة للتحريك! وما قصة اليد المنقوشة على السهم؟

فركتُ شعري وأنا أمتطي صهوة التفكير، السهم يبدو أنه يدل على اتجاه حركة النجمة.. واليد تعني الإستعانة بيدي! أهاه إنني قاب قوسين أو أدنى من الحل!!

إلتفّت أناملي على أضلاع النجمة وقبضت عليها بقوة، وجذبتها إلى اتجاه السهم، فانزلقت بسلاسة حتّى صدر صوت طقطقة كأن قفلا في الداخل قد انفتح!

انصهر جبل جليد الدهشة بالكامل، فظهرت مروج الحلول، إنفتح التقسيم على شاكلة باب صغير، إنه يخفي غرفة سرية!

دخلتُ في حذر وقلبي يدق بسرعة، لفرط جرعة الأدرينالين التي ارتشفتها

عند انفتاح الباب، رائحة الكتب القديمة تعم المكان، إستنشقتها بنهم، شعرتُ وكأن سرداب التاريخ ابتلعني إلى الماضي الغابر، فانتهت بي الرحلة في قبر فرعون!

غرفة صغيرة جدرانها من كتب تتوسطها طاولة خشبية مليئة بمخطوطات منظمة على شكل صُحف!

يبدو أنني عثرتُ على كنز جديد!

جمعت تلك الصحف بحذر وكأنني أجمع قطع التاريخ، المجموعة الأولى تحتوي على ثلاثين صحيفة تخص نبي الله إدريس، من المفروض أن تكون أقدم صحف في التاريخ! لأنه النبي الثالث في الترتيب بعد "شيث" و "آدم" أبُ البشرية! بجانبها مجموعة أخرى لكنها تختلف في المحتوى! ما هذه اللخبطة؟

تفحصت المجموعة الأخرى فاتضحت أنها نسخ من الأناجيل الأربعة لكنها تختلف أيضا في المحتوى، هذا يحرم الخمر والآخر يحللها، هذا يبيح الزنا والآخر يحللها بالتكفير عن النفس بالجلد!

إتّضح لي بعد بحث معمّق في المخطوطات أن هنالك أيادي بشرية عبثت بهذه الكتب السماوية وحرّفتها بحيث تتماشى أحكامها مع مصالحها، أصابني الفزع لما رأيت واكتشفت، تنفست الصعداء، وأعدت المخطوطات إلى مكانها، فتراءت لي عبارة مكتوبة على الحائط كأنما كُتبت بالدماء! "الغايات النبيلة تُبرر الوسائل الدنيئة" وتحتها عبارة أخرى "ولأن الحياة تبارك القوي وتذل الضعيف، يجب علينا أن نكون الأقوى"

إنتابني شعور غريب، مزيج من الخيبة والوهن والإستياء، كأنما ابتلعتني عاصفة رملية، لم أعد أعرف ماذا أفعل، هل أستمر في هذا العبث الذي تسببت فيه

عائلتي؟ أو أسبح ضد تيّارهم الجارف!

أجدني غريقا في بحر لجّي لا ترى عيني سوى العتمة التي خيمت على كل شيء، أنظر بعين زائغة إلى قبّة السماء المرصعة بالنجوم، أبحث عن حبل نجاة ينقذني من هذه العتمة! أتنفس الصعداء من جديد، يجب عليّ أن أكمل أحداث الرواية التي رماني جدّي فيها لأكون الكاتب والقارئ! لكنني سوف أنظّم الأدوار بطريقتي...

مضت الأيام والليالي، لم أعد أفرّق بين الليل والنهار وأنا أتصفح الكتب السماوية، قررت أن أقارن بينها، وأيّهم أقرب إلى المنطق وإلى الحقيقة، تقوقعتُ في منطقة الحياد، ولم أدع كتابا إلا وقرأته ثلاث مرات، ختمتُ بكتاب القرآن، لاحظت أن قِصصه وأحكامه وحِكمه قد أجمعت بين قِصص باقي الكُتب السماوية، خاصة في الأحداث التي تخص "مريم العذراء" وابنها المسيح النبي عيسى، هذا الكتاب سلّط الضوء على أغلب قصص الأنبياء بدقة تاريخية غريبة كأنما يُصوّر الأحداث في عقلي تصويرا فنّيا..

إنه نظام اجتماعي شامل، نظّم حياة الإنسانية تحت سقف التوحيد، وذلك بأن الله واحد لا شريك له في الملك وفي كل شيء، عكس ما يعتقده أغلب المسيحيين من أصحاب التثليث بأن الله ثالث ثلاثة، الله وعيسى وروح القدس!

إذا كان الإله موجودا فعلا وكانت له مطلق القدرة فكيف له أن يكون بشرا كما يدّعون! تذكرت الفئة القليلة من المسيحيين الموحدون فقد كان فيهم رجل حكيم اسمه "بولس الشمشاطي" كان يقول:" إن الإله واحد. وإن المسيح ابتدأ من مريم عليها السلام، وإنه عبدٌ صالح مخلوق، إلا أن الله تعالى شرّفه وكرّمه لِطاعته وسمّاه ابناً على التبنّي لا على الولادة والإتحاد." وهذا الحديث قريب مما يقوله كتاب المسلمين "القرآن" في صورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)

خيمت غيوم الحيرة على الحقيقة فحجبت عليّ كل شيء، إكفهرّت سماء أفكاري حتى لم تعد سماء، تنهدت ثم تابعت التأمل في كتاب "القرآن"

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

[سورة المؤمنون١٤]

أطلت التدبّر في هذه الآية، إنها تقدم وصفاً علميا دقيقاً في تفاصيل خلق الإنسان! هذا الكتاب القديم سلّط الضوء على أشياء تم اكتشافها من طرف العلم الحديث! تذكرت انبهار جدّي وشغفه بهذا الكتاب رغم إصراره على عدم الإيمان به! كان يهمل بقية الكتب السماوية لما تحمله من أحداث مشوشة ومعلومات متناقضة وغير دقيقة، لا أعرف ما السبب الذي جعل جدّي يمتنع عن الإيمان بأي كتاب مقدس ويكون بمنأى على كل الروحانيات، ربما لأنه إنسان عملي ومنطقي.

أعدت قراءة الكتاب للمرة الرابعة، لم يترك القرآن مجالا إلا و تطرّق إليه، إنه موسوعة شاملة وسِعت كلّ شيء، علم المواريث، علم الإجتماع و الطب، علم الفلك، قِصص الأولين من الحضارات و الملوك الجبابرة، و كان العدل فيه أساس كل شيء، كل الناس تحت سقف القرآن سواسي، حرّم الخبائث و مُذهبات العقول، حرم كل شيء فيه ضرر للناس مثل القتل و الظلم و الربا و السرقة، فيه من النظام ما يؤدب النفس البشرية لتتخلّص من الشهوات الضّارة و الكسل و البخل، هذا

الدستور جميل عكس ما يتم نشره في الإعلام الغربي على أنه دين مُتطرّف ينشر الكراهية ويُشجّع على الإرهاب ويحد من الحريات! ما هذه البروباجاندا المضلّلة؟ إن ما إكتشفتُه في هذا الكتاب مخالفا تماما لما يتم تداوله! إنه بريء مما ينسبونه له من تُهم خطيرة، أما بالنسبة للعمليات الإرهابية التي قام بها العديد من المسلمين بت على يقين من كونها عمليات ذئاب منفردة لا علاقة لها بالإسلام أو ربما تُدعمهم أطراف تتبنى عداء للإسلام فتقوم بتشويهه بطريقة أو بأخرى..

أغمضت عيني لأسترق من النوم غفوة، تذكرت حديث جدّي عن الأندلس وكيف انتشر الإسلام وتوسّع في العالم في ظرف وجيز! ولماذا يُسميه "العملاق النائم" ويحسب له ألف حساب؟

أين أنت يا عمر... ليتك بجانبي لكي تُجيبني على الأسئلة التي تسبح في بحر الحيرة وأبت أن ترسو!

أخيرا وجدتُ ضالّتي

تسلّلت أشعة الشمس إلى غرفة المعيشة، فركت عيني وأناملي تبحثُ عن الهاتف، إنها العاشرة صباحا، ليلة طويلة مضت وأنا أهرول وراء المنطق في متاهة الأفكار التي رماني جدّي فيها، تعبت عيناي من القراءة وتعب معهما عقلي لثراء وهول ما اكتشف! قرأتُ في الأيام الفارطة عديد الكتب وفي مختلف المجالات ولم يعبث بوجداني إلا كتاب المُسلمين! هذا القرآن خاطب ذاتي كأنما أحياها من جديد! كلما قرأتُ آية أجدني مشدوها أكثر من أي وقت مضى، إنه كتاب جامع لكل العلوم والحِكم! لا يُغادر شيئا إلا سلّط عليه الضوء! لكن لازالت بعض الأمور مُشوشة وليست واضحة أمامي بالقدر الكافي..

نهضت متثاقلا في بدني لكن عقلي ناشط على غير العادة!

أعددتُ شطيرة وغمستها بالعسل ومعها خبز محمّص ومربى التين، أحتاج إلى الكثير من السكّريات لاستقبال يوم طويل من البحث والتفكير..

ظلّت فكرة البحث عن معلومات تخص الإسلام تدور في ذهني، تذكّرتُ عمر عندما كنا نتحاور في موضوع علم النفس وعن كيفية البحث عن الراحة النفسية، كان يؤكد لي في كل مرة أن راحته النفسية لا يجدها إلا عند السجود في صلاتهم..

صلاة المسلمين! دور عبادتهم! لقد وجدتها!

دخلت محرّك البحث في الخرائط، لأبحث عن أقرب مسجد للمسلمين، لدي عديد الأسئلة، أحتاج إلى رجل دين فقيه لكي يجيبني عليهم، أحتاج فقط أن يوضّح لي ما هو الإسلام؟

ثماني علامات ترمز إلى مواقع المساجد أقربهم إلى البيت مسجد (السلام)

إلتقمتُ الشطيرة بسرعة، ثم غمستُ قِطع الخبز في المربّى، شربتُ كأس حليب بارد، ثم انطلقت إلى غرفتي، إرتديتُ ملابسي وخرجت أبحث عن المسجد..

توقّف باحث الخرائط عند مبنى أبيض كبير تتوسّطُه قبّة واسعة بجانبها برج بطول حوالي عشرة أمتار، باب خشبي تُزينه زخرفة شرقية جميلة، طرقتُ الباب، فما لبثت أتفحّص الزخارف المتموّجة حتى فُتح الباب.

طلّ من ورائه رجل ستيني قمحيّ البشرة يرتدي قميصا أبيض وعلى رأسه عمامة بيضاء، إبتسم لي، "السلام عليكم"، تفضّل يا إبني هل تريد شيئا؟

إرتبكت في بادئ الأمر... في الحقيقة يا عمي أنا أبحث عن راهب مسلم لكي يجيبني على بعض الأسئلة أحتاجها في بحثي، لم تفارق الإبتسامة محياه، بكل سرور يا بُني سوف تجِدُ ضالتك بإذن الله، لكن رجل الدين عندنا لا يُسمّى راهبا! طأطأت رأسي خجلا وفركتُ شعري، أنا آسف يا عمي... يوسف، تستطيع مناداتي يوسف.. عموما يا إبني أنا المؤذن في هذا الجامع ومسؤول على أمور التنظيف، وفي الحقيقة قد لا أكون أهلا لأجيبك على كلّ أسئلتك، تستطيع انتظار الشيخ محمد الأخضر، سوف تنتفع بعلمه الواسع وتنبهر ببلاغة لسانه الذي يغزل الحرير لطلاقته، نظر إلى ساعة يده، إنها ١١:٣٠ صباحا، والشيخ يأتي مع صلاة الضهر، يعني حوالي ساعة، شكرا عمي يوسف على رحابة صدرك، سوف أنتظره في المقهى المقابل، حسنا بُني كما تريد، إلى اللقاء عمي، في أمان الله ولدي..

جلستُ في الركن المقابل للمسجد مباشرة، طلبتُ قهوة سريعة مُكثّفة، أحتاج إلى جُرعة كافيين لأعدّل بها بوصلتي، دقائق واستقرّت القهوة أمامي، أضفتُ إليها نصف ملعقة صغيرة من السكر، إرتشفت رشفة تفرّقت لعِبقها السحب الملبّدة

التي شوشت تفكيري.

بدأ الناس يتوافدون إلى المسجد، حتى انبعث صوت من أعلى البرج يردد

"الله أكبر الله أكبر"

شعرتُ ببرودة شقّت رأسي وانتقلت إلى باقي جسدي...

إذن هم يقصدون أن الله أكبر من كل شيء ومع التأكيد!

"أشهد أن لا إله إلا الله"

إنهم يشهدون أن الله وحده لا إله غيره! على عكس ما يتصوره أغلب المسيحيين على أن الله ثالث ثلاث!

"أشهد أن محمد رسول الله"

يشهدون أن محمدا مجرد عبد رسول، ليس إله كما يعتقد المسيحيون بشأن النبي عيسى!

"حي على الصلاة"

اهاه إنه نداء الصلاة!

"حي على الفلاح"

أعتقد أن الصلاة بالنسبة لهم هي الفلاح!

"الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله"

يكرّرون التكبير ويؤكدون أن لا إله إلا الله!

إنتابني الفضول لمعرفة ما يحصل داخل المسجد أثناء العبادة، كيف تتم طقوس

الصلاة!

حسمتُ أمري لدخول المسجد، تسلّلتُ إلى الداخل خِلسة واختبأتُ وراء ستار الباب، لكن دور اللص لا يروقني، تقدّمت بين الناس في خجل أبحث عن ركن اقرفص فيه بحيث أستطيع مراقبة كل شيء.. لا أسمع هنا كلاما أو ضحكا أو حتى نحنحة، كلّ واحد منهم منفرد بنفسه، الأغلبية يقرؤون، أظنه القرآن يستقر بين أياديهم، وهنالك من يمسك بعقدٍ طويل ويحرك حبّاته كأنما يحصيها، رغم كثرة الناس إلا أن المكان هادئ كليلة ربيع دافئة، شعرتُ باطمئنان غريب على جسمي، ثم ما لبثت أن غمرتني رغبة في البكاء! لا أدري لماذا لكنني أشعر أنني أحتاج لذلك! كل الأحاسيس تدفّقت مع بعضها فما استطعتُ منع العبرات!

تقدّم رجل سبعيني نحو الأمام يلبس رداء أبيض طويل، تغطّي وجهه لحية بيضاء كثيفة، ما إن بلغ المنبر الخشبي حتى وقف جميع الناس في نشاط، نادى منادي من بينهم مردد نفس العبارات التي سمعتها في أعلى البرج

"الله أكبر الله أكبر"... ثم أضاف "قد قامت الصلاة" فما لبث يكمل كلامه حتى اصطفّ الناس في صفوف مستقيمة في لحظات قليلة من الزمن! يا للروعة ا يعقل هذا؟

كيف لمجموعة تتكون من عشرات الناس أن تنتظم في شكل صفوف متراصّة بهذه السرعة وبمنتهى الدقة والنظام!

إذن ذلك هو الشيخ الذي أخبرني به يوسف المسؤول على التنظيف!

ردد الشيخ "الله أكبر" فردد ورائه الناس "الله أكبر"

تسمّرت في مكاني أراقب حركاتهم في صمت، حتى أكملوا طقوس الصلاة.

تفرّق أغلب الناس، وظل بعضهم مرابطا مكانه، تململتُ في مكاني، حتى انتبه لي العم يوسف، ابتسم لي كعادته، إذن أنت هنا! يا مرحبا بأخينا، ثم أشار إلى الشيخ بيده، فأقبل يبتسم نفس ابتسامة العم يوسف المطمئنة..

السلام عليكم يا شيخنا، هذا ضيفنا جاء يسأل عنك منذ ساعة، وأظنه متلهفا لأمر ما جعله يستبقك الى المسجد، وختم بضحكة خفيفة وربّت على كتفي..

نظر لي الشيخ محمد الأخضر بعيني مفتش فما لبث أن ابتسم لي كأنما عانقني لفرط عذوبة ضحكته الخفيفة.

السلام عليك يا بُني، رددت نفس الكلام "السلام عليك يا شيخ الإسلام" إتسعت الإبتسامة على محياه ونظر إلى العم يوسف، إن هذا الشاب يظنني ابن تيمية، يا بختك يا شيخ محمد بهكذا لقب "ردد العم يوسف" وضحكا الإثنان..

في الحقيقة يا شيخ محمد أنا ما جئتُ إلى هذا المكان لأجل العبادة ولستُ بمسلم أصلا ولكن في جعبتي بعض الأسئلة تخص دينكم أتمنى أن أجد ضالتي عندك..

أعرف يا بُني بأنك لست مسلما.. وكيف عرفت يا شيخ؟

لو كنت مسلما يا بُني لما دخلت المسجد بحذائك!

توقفت الدماء في جسمي، إختلست بناظري إلى قدميه فوجدته حافيا! كذلك العم يوسف وباقي المصلّين أيضا! شعرتُ بالخجل وطأطأت رأسي خجلا... ضحك الشيخ محمد لموقفي، لا تخجل ولا تعتذر يا بني، فلا جناح عليك، فإنك لا تعلم! أنا آسف يا شيخ، فلم أنتبه إلى هذا لفرط لهفتي للقائك!

إجلس يا بُني، جلست وجلس معنا العم يوسف

هات ما عندك، ما الذي تريد أن تعرفه؟

لا أخفي عنك يا شيخ أنني لم آتي الى هنا من أجل اعتناق دينكم، وأصدقك القول انني لم أفكر في هذا حتى الآن... لكن عندما قرأت كتابكم وأعدت قراءته مرارا شعرتُ بأن دينكم شامل وتقدّمي ومواكب لأحداث الماضي والحاضر، على عكس ما يتم تداوله في الإعلام من صحف وإذاعات...

وما الذي تردده الصحف والإذاعات يا بُني؟

امم يقولون إن المسلمين متطرفين ويقومون بالعمليات الإرهابية لترهيب الناس!

وماذا يقولون آخر؟

يحذرون بعدم الإختلاط والإحتكاك بالمسلمين لأنهم متشددون في دينهم ويكرهون الحياة، يحبون العيش تحت الظلام والرجعية!

عمّ الصمت قليلا، ثم ابتسم الشيخ محمد يا ابني كل الذي سمعته من الصحف والإذاعات صحيح..

فزعت لما سمعت وجحضت عيناي، لكن الشيخ تابع قائلا، يا بُني صحفكم واذاعاتكم لا تقول إلا أنصاف الحقائق! فالصفات البشعة التي نعتونا بها، لا تنطبق إلا على فئة قليلة وشاذّة من المسلمين، وكما تعلم فإن الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه، هؤلاء الناس إما يتم استغلال جهلهم وضعف دينهم فتتم دمغجتهم لتنفيذ مخططات أعداء الإسلام، أو يتم استقطابهم وإغوائهم بالمال فيتم أيضا استغلالهم من طرف أعداء ديننا، والهدف من كل هذا تشويه صورة الإسلام في العالم، وهذا يحدث معكم أيضا ومع اليهود فكل دين يوجد فيه فئة متطرفة تنخر قواعده

كالسّوس..

في الحقيقة يا شيخ أنا لست مسيحيا ولا حتى يهوديا، أنا لا شيء! لا أعبد شيئا، أنا إنسان عملي لا أؤمن إلا بالمنطق والعلم.

أحترم رأيك يا إبني لكن عليك أن تفتح الأبواب أمامك لتبحث وتكتشف! وأنصحك أن توسّع دائرة قراءاتك، نعم يا شيخ وهكذا فعلت ولهذا أنا هنا، لتحدثني عن الإسلام وعن أهداف هذه الرسالة السماوية وتأثيرها على الفرد والدولة والأمة!

شعرت بتفاصيل الفوز ترتسم على وجه الشيخ محمد الأخضر، تنحنح ثم قال:

إستمع إليّ جيدا يا ابني، إن رسالة الإسلام ما بُعِثت إلا لتُنقذ النفس البشرية من رمال الرذائل المتحركة، فتصفّق بجناح الطهورية لترتقي بها إلى درجات الفضيلة، وجاءت لتقذف الرحمة والطمأنينة في القلوب الكالحة لترتوي فتُسامح وتكظم الغيض وتصفح، وانتشرت الرسالة لتُنظّم حياة الإنسانية تحت سقف العدل فبنت الدول فصارت أمم... ثم فتحت أبواب زنازين العقول فتحرّرت لتبحث وتتدبر، وحاربت الإنحراف لتسلم الفِطرة البشرية من كلّ طفرة سلبية سيئة، وحّدت الطوائف والجماعات فجعلت منها نُظم مُهيكلة متماسكة فانصهرت بين مكونات المجتمع وتأقلمت. بينت لنا أن الأيديولوجيا ليست سوى طريقا مختصرة إلى عبودية راقية ترتدي معطف التعصّب! هل فهمت قصدي يا بني؟ نعم نعم يا شيخ، حدثني عن قوانينكم..

قوانين الإسلام يا إبني هي أحكام شرعية صدّت الحكومات عن الطغيان ومنعتها من التفرّد بالحكم، فجعلت من إرادة الشعب صوتا حُرّا يختار ويُفوّض من النُّخبِ من ينوبه في السلطة تحت سقف الديمقراطية والتداول السلمي على

السلطة، ونبذتِ الكراهية والتطرّف ونشرت قيم التسامح بين الشعوب، وحثّت الإنسانية على طلب العلم.

نظّم الإسلام حياة الإنسان بعدما كان في الجاهلية متقوقعا على نفسه لا يفكر إلا في التزاوج وتوفير قوت يومه، فأصبح الفرد تحت قبّة الإسلام حرا يتمتّع بحقوقه التي تنتهي عند حقوق غيره، أصبح الراعي مسؤولا عن رعيته، تلاشت غيوم العبودية فأصبح العبد حرا طليقا يتمتع بنفس حقوق غيره، لا فرق في ديننا بين أبيض أو أسود ولا بين غني أو فقير..

كيف تعاملون المرأة يا شيخي؟

الإحسان إلى المرأة يا إبني يكمن في إحترام كيانها، والإعتراف بتضحياتها تجاه الأسرة التي هي عمق مجتمعنا.. ولا ينبغي أن نستغل خشونتنا نحن الرجال لنشعرها بالضعف، بل يجب علينا أن نجعلها ملجأ نجمع فيه شتات ذواتنا الضائعة... ندعها تشعر بالأمان لتؤمن لنا استقرارنا النفسي..

المرأة كائن غامض في ظاهره، ومعقد لمن فقد الحيلة، فإن أنت ظفرت بثقتها ستكون لك الشمس في وضوحها.. و القمر في نقائها... هي لا تحتاج منا الكثير و لسنا مطالبين حتى بإثبات حبنا لها، بل تريد منا الصدق لتثق بنا، والأمان لتطمئن لقلوبنا، و الإهتمام لتشعر بكيانها و مكانتها عندنا ...

نصيحتي أن رفقا بها لا تقسو ولا تلين فقط كن رجلا بما تحمله الرجولة من معنى، لتشعرها بانوثتها... هي ليست جنس غريب بل خلقت من صلبك، فتذكر كيف تروض ذاتك حتما سوف تعرف كيف تعاملها وتسترضيها...

لقد اوصانا بها سيد الخلق يا بني ووصفها بالقوارير لنرفق بها ولنكون أهلا

للأمانة، أما بالنسبة لسترها، فهل ترضى بأن تكون أختك أو زوجتك لحما رخيصا تنهشه عيون الرجال السائغة؟

لاحظ الشيخ شرودي، هل أنت معي يا إبني؟

وهل تظن يا شيخي أن يغفو عاقل عن هذا الكلام الجواهر! أنا معك قلبا وقالبا..

وضع يده على رأسي وتمتم بكلمات كأنه يردد دعاء معين، شعرتُ بغمامة تستقرّ فوق رأسي كأنما تتساقط منها زخات مطر خريفي ناعم، تحولت شيئا فشيئا إلى أوراق ثلج بيضاء تراكمت داخلي كلما ردد الشيخ تلك الكلمات!

هدأ كل شيء داخلي وانطفأت نيران الكبرياء والشهوة والشراهة فأصبحت بردا وسلاما، أ سحر هذا؟ لا يبدو ذلك! فأنواع السحر التي وجدتها في كتاب بروتوكولات العائلة لا تعتمد إلا على الأشياء النجسة والقذرة، بينما هذا الشعور طاهر ونقي ويلاطف النفس فيؤنسها ويجتثّ من القلب السّواد ويجعله أبيضا نقيا. لم أشعر مذ أيام طفولتي بمثل هذه الراحة!

لطالما احتقرت الأساليب والوسائل التي يتخذها الأثرياء من أجل بناء ثرواتهم وتوسيع نفوذهم، يغضّون البصر عن كل أنواع الفضيلة، يدخلون مستنقع التنازلات فيخلعون ثوب الشرف، لا يكترثون لعهد ولا ميثاق، همّهم السلطة والمال وإشباع بطونهم وغرائزهم، هجرتهم الثقة والأمانة، فأصبحوا يلهثون وراء الدنيا كجري السباع وراء فرائسها، جمعوا الكثير من المال ولم يستطيعوا شراء نوم هادئ أو لحظات صفاء تغتسل فيها نفوسهم.

لقد سئمتُ هذه الحياة الكالحة، وها هي أبواب الروحانيات تنفتح أمامي فلا

ضير أن أجرب!

اغرورقت عيناي، حاولت كتمان شعوري لكن سيل العبرات فضحني..

أجدني أنتحب كطفل وجد أمه بعد عناء بحث طويل، لا أشعر إلا ووجدت نفسي أحتضن الشيخ، وأجهشتُ ببكاء طويل...

ربت الشيخ محمد الأخضر على كتفي، مسح دموعي بكفيه، ونظر إلى عيني طويلا..

أبواب الإسلام مفتوحة يا بُني، وأنا أدعوك إلى الدخول! جرب يا ابني فإن في لذّة الإيمان ترياقا يداوي كل ندوب النفس... وهل يقبلني الإسلام يا شيخي وصحيفتي مليئة بالمعاصي؟ نعم يا بني، ولأن رب العباد غفور رحيم، فإن أبواب التوبة مفتوحة...

لفحتني نسائم باردة أيقظت فيّ الشغف، شعرت بالرّغبة تدفعني إلى اعتناق الإسلام، نعم إنها لحظة القرار النهائي!

شيخي... نعم يا ولدي، لقد حسمتُ أمري!

ردد معي يا بُني

أشهد

أشهد

أن لا إله

أن لا إله

إلا الله

إلا الله

وأشهد

وأشهد

أن محمدا

أن محمدا

رسول الله

رسول الله

شعرت أن قيودا داخلي قد تحطمت، طار من داخلي سرب من الغربان ، أجدني حرا أكثر من أي وقت مضى، سمعت الشيخ محمد الأخضر والمؤذن يوسف يرددان "الحمد لله الحمد لله".

رددت خلفهما الحمد لله الذي تقبلني عنده تقبلا حسنا

الصدمة

وصلت إلى البيت، ولم أشعر بطول المسافة منذ خرجتُ من المسجد، شعرتُ بالراحة والنشاط، إنقشعت غياهب العتمة، وهجرني الإحساس بالإكتئاب فجأة وترك لي أثناء رحيله لذّة الإيمان ارتديتُ في خلوتها ثوب الفضيلة... أصبحت أتحسس نبض الجمال في كل الأشياء التي حولي، إنني أشعر بعذوبة السعادة تتفتّح من صلبي، أخيرا دخلت في صلح مع ذاتي وحصلتُ على التأشيرة في لحظات أنصفتني بها الأقدار، شكرا ربي، لقد تعافيتُ تماما من تراكمات الإكتئاب..

أدخلتُ المفتاح فوجدتُ قفل الباب مفتوحا، دخلتُ متوجّسا أترقّب الغرفة في حذر، رائحة التبغ تخيم على المكان، إنها مألوفة لدي، يبدو أن جدّي قد سبقني..

أين كنت؟

شعرت بالإضطراب، تلعثم لساني، لا أدري ماذا أجيب!

كنت في المقهى المجاور يا جدّي، شعرتُ بالضيق فذهبتُ لأحتسي القهوة.. وهل يشعرُ عاقل بالضّيق داخل مكتبة يا يعقوب؟ في الحقيقة يا جدّي لقد قرأتُ الكثير من الكتب وشعرتُ ببعض الملل.. كانت عينا جدّي تُراقب تفاصيل وجهي المرتبكة وتتفحّصها كالصّقر.. ما بك يا بُني؟ هل هنالك أمر ما؟ شعرتُ وكأنني متهم يقف أمام مفتّش مباحث مخضرم، جدّي يمتاز بذكاء حاد يستطيع من خلاله تقدير صحّة الأشياء بنسبة كبيرة!

لا تقلق لشأني يا جدّي فقط أشعر ببعض التعب نظرا للقراءات المكثّفة... وماذا قرأت؟ العديد من الكتب، في مختلف الميادين.. وكيف اكتشفت الغرفة السرّية؟

تجمّدت الدماء في عروقي، لا أدري ماذا أجيب وكأن لساني أصابه الخرس! لا تخف يا بني كنت متأكد من أنك ستكتشف سرّها عاجلا أم آجلا، ولا تظنني غاضب منك! بل بالعكس أنا فخور بك أيها الماكر..

فركتُ شعري خجلا، أنا تلميذك يا جدي..

هاه قل لي إذن هل قرأت جميع الكتب الدينية؟

كلها يا جدّي.. جميل، وهل لاحظت اختلافا بينها؟ طبعا، فكل كتاب نزل في حقبة معينة ومع نبي معين..

"نزل"!! وضّح لي أكثر ماذا تعني بنزل؟ هل نزل من السماء مثلا؟

تجمّد لساني وكاد قلبي يخرج من مكانه، لقد ارتكبت خطأ فادحا في الإجابة، لقد نصب لي جدي فخا ووقعتُ فيه كالأبله..

قل لي يا يعقوب، هل قرأت كتاب القرآن؟ نعم يا جدّي..

وهل أعجبتك تشريعاته وقِصصه؟ لقد أحاطني جدي بشباكه، أدرك جيدا أنه يشعر بشيء ماء، سوف لن يتركني وشأني.. لم ألبث إلا وشعرتُ بصفعة قوية تنهال عليّ من حيث لا أشعر! إلتفّت أنامله الغليظة على رقبتي ثم ثبّتني على الحائط.. ماذا كنت تفعل في مسجد المسلمين؟ هيا أجبني وإلا قتلتك في الحال، مثلما فعلتُ مع أبيك! شعرتُ بصفعة أخرى لكنها استقرّت كالخنجر داخل قلبي! هل كانت قصة موت أبي بسبب جرعة مخدرات مفرطة لا أساس لها من الصحة ومُفتعلة من جدّي؟ شعرتُ بالإختناق أكثر.. هيا أجبني لماذا اخترت زيارة مسجد المسلمين من دون بيوت العبادة كلها؟ جدي هدّأ من روعك لما كل هذا التشنّج؟ إخرس!! أجبني هل تم استقطابك أيها الأبله إلى الإسلام؟ هل سحروك مثلما يسحرون

الآلاف من الأغبياء في كل عام؟ هيا أجبني!

إنتفخت أوداجه وخرج الزبد من فمه، إحمرّت عيناه وجحضت.. تحول جدي إلى وحش كاسر، كأن الذئب الذي بداخله استيقظ لينتقم، شعرتّ بالضيق لكن سرعان ما عاد كل شيء داخلي إلى سالف نشاطه، أشعر بالقوة والصلابة أكثر من أي وقت مضى.. نظرتُ إلى عيني الشيطان الذي يقف مزمجرا أمامي وقلتُ بكل ثقة، لقد إعتنقتُ دين الإسلام يا جدّي وتحررت من قفص العبودية الذي أدخلتني إياه، فلتعلم أنني لن أعدِل عن قراري هذا ولن أرتدّ عن الإسلام ما دمتُ حيا... وإني أدعوك إلى خوض هذه التجربة يا جدّي لعلّ الإيمان يطهر قلبك...

إرتخت أصابعه وتراجع خطوات إلى الوراء، هدأ فيه كل شيء وتحوّلت نظراته إلى نظرات شيطان، نبست ابتسامة مخيفة من وراء شعره الطويل الذي انسدل على وجهه، لقد فعلتها إذن يا يعقوب مثلما فعلها أبوك... وماذا فعل أبي؟ لقد اعتنق الإسلام مثلك..

شعرتُ بفرحة قد انبعثت من صلبي لسماع هذا الخبر السعيد الذي ظلّ سجينا داخل صندوق جدّي الأسود، أغمضت عيناي لأستمتع بلحظات اللّذة التي انتشلتني فجأة من هذا الموقف، لكن غراب القلق صفّق فوق رأسي، فتحتُ عيناي فوجدتّ المسدّس يستقرّ بين أنامل جدّي تتّجه قصبته نحو رأسي..

خاتمة

الحياة تجربة عابرة، يستدرجها سرداب الزمن في بدايته بالورود، ثم تمضي في لحظات كأنما لم تبدأ! فلا تبالي بأوزارها، مهما اشتدت، تذكر أن الحاضر يتآكل، بينما الماضي لن يعود، والمستقبل مجهول، إلا الأعمال! سوى كانت صالحة أم سيئة فلا ينطبق عليها نظام الزمن، لذلك يجب علينا ترتيب أولوياتنا في هذه الدنيا الفانية..

ذكّر نفسك في كل مرة وألبسها لباس التقوى، ولأن رمال الفتنة متحركة فلا تغتر بقوة إيمانك! فكم من عاصي تمسّك بخيط التوبة فنال المغفرة! وكم من مؤمن راودته الحياة عن نفسه فتهاون عن عبادته وانحرف عن دينه فابتلعته رمال الفتنة، فخسر الدنيا والآخرة معا، كل شيء نسبي ومؤقت وقابل للتغيير، ولا يمكن أن يكون ثابتا..

إنها رمال متحركة، فتن الحياة وتقلّب القلوب.. إن أردت النجاة فيجب عليك أن تضبط نفسك عند الشدائد، وحاول أن تتحلى بالصبر عند الفجائع، والثبات عند الصعاب ولا تحيد عن الإستقامة عند الرخاء، واصفح الصفح الجميل عند الظلم، واكظم الغيظ عند القهر، واجعل قلبك يلين للضعيف واستغفر عند الغضب واكسر نفسك وأدبها عند الشهوات..

فهذا عمر ضعُفت نفسه أمام فتنة الخمر فانقلبت حياته رأسا على عقب.. وذاك يعقوب فُتحت له أبواب التوبة بمجرّد أن قرر تغيير ما بنفسه

أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً

ومن يعتبر؟

تمت بحمد الله